
روبنسن كروزو
كامل كيلاني

روبنسن كروزو

تأليف
كامل كيلاني



روبنسن كروزو

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٢١٢
تدمك: ٠ ٠٩٣ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

المحتويات

مقدمة

بقلم چان چاك رُوسُّو

«ما دُمْنا لا نَسْتَغنِي عَنِ الْكُتبِ، ولا مَعْدَى لَنا عَنِ الْمُطالَعَةِ؛ فَثمَّةَ كِتابٌ هُوَ عِنْدِي أَثْمَنُ ذُخْرٍ فِي التَّرْبِيَةِ الاِسْتِقْلالِيَّة الطَّبِيعِيَّةِ. وسَيَكونُ أَوَّلَ كِتابٍ يَقْرَؤُهُ طِفْلِي «إِميل». وسَيُصْبِحُ — وَحْدَهُ — كلَّ مَكْتَبتِهِ. وسَيَرَى فِيهِ — عَلَى الدَّوامِ — مِنَ الْمَزايا الْباهِرَةِ ما يَدْفَعُهُ لِإِحْلالِهِ أَسْمَى مَكانٍ عِنْدَهُ.

وَسَيَظَلُّ هذا الكِتابُ عُمْدَةً فِي هذا الْبابِ، وَيَظَلُّ كُلُّ ما عَداهُ — مِنْ كُتُبِ العُلومِ الطَّبِيعِيَّةِ — حَواشِيَ وتَعْلِيقاتٍ عَلَيْهِ. فَهُوَ أَصْدَقُ مِقْياسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نجاحِنا فِي الْحَياةِ، كما نَقِيسُ عَليْهِ أحْكامَنا الَّتِي نُصْدِرُها. وسَيَظَلُّ — كَذلِكَ — مُتَجَدِّدَ الرَّوْعَةِ والْأَثَرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ نَقْرَؤُهُ، ما دام لَنا ذَوْقٌ لَمْ يَتطَرَّقْ إِلَيْهِ الْفَسادُ.

تُرَى ما هُوَ هذا الْكِتابُ إِذَنْ؟

لَعَلَّهُ كِتابُ «أَرسْطُو» أَوْ «بلِين» أَوْ «بُوفُّون»!

كَلَّا، لَيْسَ كِتابَ أَحَدٍ مِنْ هؤُلاء، بَلْ هُوَ كِتابُ «رُوبنسنْ كرُوزُو».



«جان جاك رسو»

إلمامة

بقلم كامل كيلاني

تعد قصة «روبنسن كروزو» من أشهر القصص العالمية التي كتب لها الخلود. وقلما تجد فتى — أو فتاة — ممن يتكلم الإنجليزية في أي بلد من بلاد العالم، لم يقرأها في شغف وسرور لا حد لهما، وهو مبتهج بتلك القصة الفاتنة، التي تشرح له كيف غرقت السفينة، ومات من فيها، ونجا واحد بمفرده من ملاحيها، وعاش في جزيرة مقفرة لا أنيس بها. وكثيرًا ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفاصيلها.

وقد اتخذها رجال التربية أساسًا لتثقيف الأطفال، لأنها تعودهم الجد والدأب، وتنشئهم على الحياة الاستقلالية أحسن تنشئة. وقد جعلوها أساسًا لنظام الكشافة، كما اتخذوها مرشدًا لهم ومعينًا في اقتباس نظرية ربط المواد الدراسية ببعض.

وقد ولد مؤلف هذه القصة «دانيل ديفو» بمدينة «لندن» عام ١٦٦١م، ومات في ٢٦ من أبريل سنة ١٧٣١ م. وكان مشهورًا بالصدق والأمانة.

وكان اسم أبيه «جيمس فو».

وقد ظل اسم المؤلف — منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنيه — «دانيل فو»، ثم تغير بعد ذلك؛ فأطلق عليه الناس اسم «دانيل ديفو». وكان لهذا التغيير قصة طريفة؛ هي أنه كان متعودًا أن يمضي بحوثه ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردفه بالاسم الثاني منه كاملًا هكذا «د. فو»؛ فتعود الناس أن ينطقوا باسمه هكذا: «ديفو».

ثم غلب ذلك الاسم عليه، لذيوعه وخفته على السمع وجمال موسيقاه؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين «دانيل ديفو».



وليس لدينا أنباء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة، كما أننا لا نعرف شيئًا يذكر عن سيرته الأولى. وغاية علمنا أن أباه كان قصابًا (جزَّارًا) يعيش في «لندن»، وأنه قد عُنِيَ بتعليم ولده وتثقيفه العناية كلها، ولم يأل جهدًا في تعهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمي عصره، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره أُرْسِلَ إلى إحدى جامعات «لندن» ليتم ثقافته. وهكذا تفقه المؤلف في الدين، وبرع في علوم الرياضة والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك، كما أتقن خمس لغات. وقد وُفِّقَ إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة: من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية، فكانت سببًا في إذاعة مواهبه ونبوغه بين معاصريه.

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات. وقد اشترك في بعضها، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل، فآثر الهرب إلى «إسبانيا»، حيث استخفى عامين، ثم عاد إلى وطنه. وساعده الحظ، فتزوج في «لندن». واشتغل بالتجارة، فلم يكتب له النجاح فيها؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث. ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أرهقه الدَّيْنُ الذي

أربى على سبعة عشر ألف جنيه. ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته — فيما بعد — على أداء هذا الدين الجسيم.

ثم رحل إلى «برستول»، حيث أنشأ صحيفة باسمه، وكتب فيها كثيرًا من اقتراحاته الاقتصادية المثمرة؛ فأخذت بها بلاده، وأقرت آراءه فيها، وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق، والمصارف الاقتصادية للفقراء، وما إلى ذلك من تنظيم الخطط الناجحة لتعليم جمهرة الشعب.

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر في نفس «بنيامين فرانكلين»، الذي قرر — صراحة — أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذي سبقه إليه «ديفو» منذ عدة سنوات، وقد حمد الحظ السعيد الذي قاده إلى هذا البحث في مكتبة أبيه.

وقد اتصل بالملك «وليم الثالث» ودافع عن سياسته، فذاع صيته.

ولما مات «وليم الثالث» آلمه موته، وعده خسارة فادحة. وانتهز خصومه الفرصة؛ فتألبوا عليه ونكلوا به. ثم عطفت عليه الملكة «حنة»، بعد أن توسط له أحد الوزراء؛ فظلت تشمله برعايتها حتى ماتت.

كيف اشتهر ديفو؟

أما شهرة «ديفو» العظيمة، فكان بدؤها قصيدة نظمها في الدفاع عن «وليم أورنج» ملك إنجلترا حينئذٍ، ردًّا على قصيدة نظمها أحد الشعراء في التهكم به، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة، وأحرز منصبًا جليلًا في عام ١٦٩٤م.

وأبى إلا أن يزحم وقته بالعمل، فأنشأ مصنع طوب كبيرًا، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله. ثم مات «وليم أورنج» في عام ١٧٠٢م، ففقد «ديفو» بموته أكبر نصير ومشجع له.

وفي عهد الملكة «حنة» لقي «ديفو» كثيرًا من العنت والإرهاق؛ فتأول خصومه في بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهوى. وانتهت محاكمته بسجنه، وتغريمه غرامة فادحة في أواخر يونية سنة ١٧٠٣م.

وقد شهر به خصومه، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبل قصده وشرف غايته. وقد كتب في سجنه عدة مقالات نفيسة. ولما خرج من السجن أنشأ

صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م. وكانت أول أمرها تظهر مرة في الأسبوع، فمرتين، ثم ظلت تصدر تباعًا ثلاث مرات كل أسبوع.

وقد لقي «ديفو» كثيرًا من الاضطهاد والعنت، وتعرضت حياته للقتل، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة. وفي عام ١٧١٤م فصل من عمله، وعاد إلى التعرض للإعنات مرة أخرى. وتألب عليه أعداؤه، ودبروا له كثيرًا من الدسائس والمؤامرات، ورموه بالأنانية، فأنشأ صحيفة جديدة سماها: «الدعوة إلى الشرف والعدل». ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعًا مجيدًا. وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية. ثم ساءت صحته وألح عليه المرض، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على متاعبه وأمراضه، فاسترد صحته بعد قليل.

وقد ألف كثيرًا من البحوث والمقالات والرسائل في الدِّين والحكومة والوطن. ثم ألف في أخريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التي أقبل عليها الجمهور أيما إقبال. وقد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص، وشدة تأثره بها، وتهافته عليها؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل، دقيقة في تصوير الحياة. فنال بقصصه نجاحًا عظيمًا؛ لأن قصته كانت تحلق دائمًا في جو سحري خلاب يزينه الصدق والدقة والإخلاص.

وفي عام ١٧١٥م ألف كتاب «معلم الأسرة» فنال قسطًا كبيرًا من النجاح والذيوع، وأقبل عليه الجمهور. ثم ألف كتابه الخالد «روبنسن كروزو» وهو أشهر قصصه. وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة «حي بن يقظان». ونشر القسم الأول منه في أبريل سنة ١٧١٩م، وكان حينئذٍ قد قارب الستين من عمره.

وقد لقي هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به «ديفو»، وأصبح حبيبًا إلى كل نفس. ومن العجيب أنه لقي كثيرًا من المتاعب والصعوبات في البحث عن ناشر ينشره له في أول الأمر. وليس في قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتبه، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم، فقد نفدت أربع طبعات متوالية في أربعة أشهر متعاقبة. وبعد زمن قليل ظهر القسم الثاني من القصة، فلقي من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لقي سابقه. وهكذا ظفر «ديفو» بالشهرة عن طريق هذا الكتاب، ولم يظفر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة، على أن له عدة مؤلفات أخرى.

وقد سار على نهجه بعض الكتاب، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب «روبنسن سويسرا» أو «الأسرة السويسرية» الذي ألفه «رودلف نيس» أستاذ الفلسفة في

جامعة «برن». وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص، ينجون من الغرق؛ فتتألف منهم أسرة سعيدة متعاونة، يظللها الوئام والحب؛ فتتغلب على العقبات والمصاعب.

على أن «ديفو» له عدة مؤلفات أخرى، نذكر منها كتابه عن «الطاعون الهائل» الذي انتشر عام ١٦٦٥م. ولكن لم يرزق أي كتاب من كتبه حظًّا من الخلود كما رزقت قصة «روبنسن كروزو». ولقد كانت كتبه شائقة جذابة، ولكن ليس لها سحر هذه القصة، وروعة هذا الملاح الذي كُتِبَ له أن تغرق سفينته وأن يعيش في جزيرة مقفرة.

وقد ساعده ما ربحه من المال — لقاء كتابته — على أن يقضي بقية حياته مستريح البال، بعيدًا عن الفاقة، فابتنى قصرًا فاخرًا، واشترى عربة جياد، وعاش عيشة راضية. ولكن صفوه لم يدم، فقد نهكه مرض النقرس، وضايقه عقوق ولده؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم، ودفن في «لندن» في الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١م.

تمهيد

مقدِّماتُ السَّفَرِ

(١) أُسْرَةُ «رُوبِنْسَنْ»

كانَتْ ولادَتِي فِي عامِ ١٦٣٢م بِمَدِينَةِ «يُرْك» الَّتِي اتَّخَذَها أَبي مَوْطِنًا ثانِيًا لَهُ، بَعْدَ أَنْ كَسَبَ منَ التِّجارةِ مكاسِبَ طائِلَةً، وجَنَى[١] ثَرْوَةً عَظيمةً، كَفَلَتْ لهُ عِيشَةً راضِيَةً.

وكانتْ أُسْرَتُنا مُؤَلَّفَةً منْ: والِدِي الشَّيْخِ، وأُمِّيَ الْعَجوزِ، وثَلاثِة أبْناءٍ كُنْتُ أصْغَرَهُمْ سِنًّا.

وقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الْأَكْبَرُ فِي مَعْرَكةٍ حَرْبِيَّةٍ، وسافَرَ الشَّقِيقُ الْأَوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِي؛ فانْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ، ولَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ — بَعْدَ ذلكَ — شَيْئًا.

وَعُنِيَ أبِي عِنايةً كبيرَةً بِتَعْلِيمي، وَنَشَّأَنِي أَحْسَنَ تَنْشئَةٍ، وَزَوَّدَنِي بكَثيرٍ منْ نَصائِحِهِ الثَّمِينَةِ، واخْتارَ لِي أَنْ أتَفَقَّهَ فِي القانُونِ[٢] ولكِنَّنِي كُنْتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ، وكانَت نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عنْ ذلكَ كُلِّهِ.

---

[١] جمع.

[٢] أتعلمه.

(٢) حُبُّ السِّياحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ واحِدَةٌ، طالَمَا تَمَنَّيْتُها، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ، طالَمَا وَدِدْتُ تَحْقِيقَها، فقَدْ شُغِفْتُ[٣] بالسِّياحَةِ وَرُكُوبِ الْبِحارِ، وَتَمَلَّكَ عَلَيَّ حُبُّ السَّفَرِ كُلَّ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أُصْغِي إِلَى لَوْمٍ أَوْ نَصِيحَةٍ. وَكأَنَّ إِرادَةً قاهِرَةً قَدْ هَيْمَنَتْ[٤] عَلَى نَفْسِي، وَغَلَبَتْنِي عَلَى أَمْرِي؛ فَلَمْ أُصْغِ إِلَى نَصِيحَةِ أبِي، وَرَجاءِ أُمِّي، وإِلْحاحِ أَقارِبِي؛ حَتَّى يَئِسُوا مِنْ هِدايَتِي، لِما رَأَوْهُ مِنْ عِنادِي وَإِصْرارِي.

(٣) نَصِيحَةُ والِدِهِ

وَكانَ أَبِي شَيْخًا مُجَرِّبًا حَكِيمًا، وَكُنْتُ أَحِبُّهُ وَأُجِلُّهُ.

وَذا صَباحٍ دَعانِي إِلى غُرْفَتِهِ — وَكانَ الشَّلَلُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْيِ — وَقالَ لِي وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ: «أَيُّ رَغْبَةٍ مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ إِلَى مُغادَرَتِنا، وَتُبَغِّضُ إِلَيْكَ الْبَقاءَ مَعَنا؟ وَماذا يُضْجِرُكَ[٥] مِنْ حَياةٍ هَنِيئَةٍ وَعِيشَةٍ راضِيَةٍ، فِي بَيْتٍ نَشَأْتَ فيهِ، ووَطَنٍ أَلِفْتَهُ وأَحْبَبْتَهُ؟ وما بالُكَ تُؤْثِرُ[٦] الشَّقاءَ عَلَى الرَّاحَةِ، وَتُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِأَخْطارِ الْبَحْرِ وَمَتاعِبِ السَّفَرِ؟ لَقَدْ يَسَّرَ اللهُ لكَ سَبِيلَ السَّعادَةِ، وَهَيَّأَ لَكَ عِيشَةً راضِيَةً، فَما أَجْدَرَكَ[٧] أَنْ تَرْضَى بِما قَسَمَ اللهُ، وتَحْمَدَهُ عَلَى هذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّكَ بِها! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ، وَأَبَيْتَ إِلا تَحْقِيقَ رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِي السَّفَرِ، أَغْضَبْتَنِي، وأَغْضَبْتَ أُمَّكَ، وَأَغْضَبْتَ اللهَ — سُبْحانَه — الَّذِي أَمَرَكَ بِطاعَةِ أَبَوَيْكَ.»

---

[٣] تعلق قلبي.

[٤] تسلطت.

[٥] يضايقك.

[٦] تختار.

[٧] أحسن لك.



(٤) دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

وَظَلَّ أَبِي يَعْنُفُ[٨] فِي كلامِهِ تارَةً، وَيَلِينُ تارَةً أُخْرَى، وَيَضْرِبُ لِيَ الْأَمْثالَ. وَلَمْ يَدَعْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النُّصْحِ إِلا سَلَكَها. ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قائِلًا: «وَاذْكُرْ — يا ولَدِي — أَنَّنِي فَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ فِي الْحَرْبِ، وفَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَوْسَطَ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى السَّفَرِ، كما تُصِرُّ عَلَيْهِ الْآنَ؛ وَقَدِ انْقَطَعَتْ أَخْبارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ، فَما نَعْلَمُ: أَحَيٌّ هُو أَمْ مَيِّتٌ؟ وأَصْبَحْتَ لنا — بَعْدَ أَخَوَيْكَ — كُلَّ رَجائِنا وَعَزائِنا، فَإِذا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنادِكَ، وَأَبَيْتَ إِلَّا السَّفَرَ فَلَنْ يُبارِكَ اللهُ لكَ، وَلَنْ تَلْقَى — فِي سَفَرِكَ — إِلا الْعَناءَ والشَّقاءَ.»

[٨] يشتد.

وَقَدْ كانَتْ هذِهِ الْكَلِمَةُ تَكَهُّنًا[٩] صادِقًا، وَدَعْوةً مُسْتَجَابَةً؛ فَقَدْ شَقِيتُ — بعِنادِي وإِصْرارِي[١٠] — شَقاءً لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي.

(٥) عُدُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وكانَ صَوْتُ أَبِي مُتَهَدِّجًا،[١١] ودُمُوعُهُ تَنْحَدِرُ[١٢] مِنْ عَيْنَيْهِ وقَدِ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِيَ الْأَكْبَرِ، وانقِطاعَ أَخْبارِ شَقِيقِيَ الْأَوْسَطِ.

وكانَ يَتَمَثَّلُ لِي حَنَانُه وعَطْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِها. ولَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أُخالِفَ لَهُ نُصْحًا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَوَعَدْتُهُ بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ. وعَقَدْتُ عَزْمي[١٣] عَلَى الْبَقاءِ فِي وَطَنِي، نُزُولًا عَلَى حُكْمِهِ، وطاعَةً لِأَمْرِهِ.

(٦) نَقْضُ الْعَهْدِ

وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ عاوَدَتْنِي رَغْبَةٌ قاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ، وحَنِينٌ شَدِيدٌ إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ فَنَسِيتُ ما عاهَدتُ أَبِي عَلَيْهِ، وَتَحَوَّلْتُ[١٤] لِذلِكَ حِيلَةً لَمْ أُوَفَّقْ فِيها؛ فَقَدْ رَأَيْتُ دَلائِلَ الاِبْتِهاجِ بادِيَةً عَلى وَجْهِ أُمِّي — ذاتَ يَوْمٍ — فَوَجَدْتُ فِي ذلِكَ فُرْصَةً سانِحَةً لِلْإِفْضاءِ إِلَيْها بِرَغْبَتِي فِي السَّفَرِ، واسْتِئْذانِها فيهِ. وتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبابِ الَّتِي تَحْفِزُنِي[١٥] إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلادِ الَّتِي طالَمَا سَمِعْتُ عَنْها. وأَظْهَرْتُ لَهَا أَنَّ هذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلُحُ لِأَداءِ أَيِّ عَمَلٍ آخَرَ، قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِها. وختَمْتُ حَدِيثِي مَعَها قائلًا: «واعْلَمِي أَنَّنِي إِذا عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بهذا الْإِذْنِ مِنْكِ ومِنْ أَبِي فَإِنَّنِي مُعْتَزِمٌ السَّفَرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذانٍ. ولا تَنْسَيْ أَنَّنِي

[٩] إخبارًا بالغيب.
[١٠] عزمي الثابت.
[١١] مرتعشًا.
[١٢] تسقط.
[١٣] بنيت إرادتي.
[١٤] اتخذت.
[١٥] تدفعني.

قَدْ بَلغْتُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمُرِي، وأصْبَحْتُ عاقِلًا رَشِيدًا، أَمْلِكُ أَمْري. عَلَى أَنِّي أرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبي فِي السَّفَرِ».

(٧) غَضَبُ أَبَوَيْهِ

وما سَمِعَتْ أُمِّي مِنِّي هذا الْكَلامَ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُها عَلَيَّ، وقالَتْ لِي: «مِنَ الْعَبَثِ أَنْ تَتَمادَى[١٦] فِي إِقْناعِنا بهذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ الَّتِي لا تَجُرُّ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبالَ.[١٧] ولَنْ يَسْمَحَ لكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعْرِّضَ نَفْسَكَ لِلْهَلاكِ».

وما أَخْبَرَتْ أَبِي بِما اعْتَزَمْتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ أَلَمُهُ وغَيْظُهُ، وَقالَ لَهَا: «يَبْدُو لِي أَنَّ الشَّقاءَ مُقَدَّرٌ لِهذا الوَلَدِ التَّاعِسِ. وسَيَلْقَى فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمَصائِبِ والْأَهْوالِ، ما لا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بالٍ. وسَيَعْرِفُ أَنَّ ما يَحُلُّ بِهِ مِنَ النَّكَباتِ هُوَ عِقَابٌ عادِلٌ عَلَى مُخالَفَتِهِ نَصِيحَةَ أَبَوَيْهِ. ولَنْ يَسْمَحَ لِي ضَمِيرِي أَنْ أَشْرَكَهُ فِي تَسْهِيلِ أَسْبابِ شَقائِهِ.»

وَما انْقَضَى عَلَيَّ عامٌ — بَعْدَ ذلكَ — حتَّى فَرَرْتُ مِنَ الْبَيْتِ، وَقَدْ أَزْمَعْتُ[١٨] السَّفَرَ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِرِضاءِ أَبَوَيَّ.

وكُنْتُ أَعْجَبُ لِتَشَبُّثِهِما[١٩] بِبَقائِي مَعَهُما. ولَمْ أَعْلَمْ — حِينَئِذٍ — ما كانَ يَخْبَؤُهُ لِي الْقَدَرُ مِنْ مَصائِبَ ووَيْلاتٍ.

---

[١٦] تستمر.

[١٧] سوء العاقبة.

[١٨] قررت.

[١٩] تعلقهما.

الفصل الأول

أَهْوَالُ البَحْرِ

(١) أَوَّلُ سِبْتَمْبِرَ

سَاقَتْنِي الْمُصادَفاتُ الْعَجِيبَةُ — ذاتَ يَوْمٍ — إِلَى «هَلْ»، ولَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ — حِيْنَئِذٍ — فِي السَّفَرِ إِلَيْها، ولا خَطَرَ لِي ذلك يَوْمَئِذٍ على بَالٍ.

ولَقِيتُ — فِي طَرِيقِي — أَحدَ أَصْدِقائِي، فَحَيَّانِي وحَيَّيْتُهُ. ثُمَّ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ عَلَى أُهْبَةِ السَّفَرِ[1] إِلى «لَنْدَن». ودَعانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ فِي سَفِينَةِ أَبيهِ؛ فَرَأَيْتُها فُرْصَةً نادِرَةً لتَحْقيقِ أُمْنِيَّتِي، دُونَ أَنْ يُكَلِّفَني ذلِكَ أَجْرًا. وغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ، فَنَسِيتُ كلَّ شَيْءٍ. ولَمْ أَحْفِلْ[2] بِإِذْنِ والِدَيَّ لِي فِي هذهِ الرِّحْلَةِ، ولَمْ أُقَدِّرْ عَواقِبَ الْأُمُورِ.

وَهكَذا رَكِبْتُ الْبَحْرَ ... وَما أَنْسَ لا أَنْسَ[3] ذلكَ الْيَوْمَ الَّذِي أَقْدَمْتُ فيهِ عَلَى هذهِ الْمُجازَفَةِ؛ فقَدْ كانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فِي تاريخِ حَياتِي، إِذْ كانَ فاتِحَةَ عَهْدِ الشَّقَاءِ.

ذلكَ الْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سبْتَمْبرَ عامَ ١٦٥١م.

[1] مستعد للرحيل.

[2] لم أهتم.

[3] إن نسيت كل شيء فلن أنسى.

(٢) هُبُوبُ الْعاصِفَةِ

وما كادَتِ السَّفِينَةُ تَمْخُرُ[٤] فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، حتَّى رَأَيْتُ الْأَمْواجَ تَصْطَخِبُ[٥] وَتَعْنُفُ[٦] وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ هذا الْيَوْمِ؛ فَتَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ والفَزَعُ، وَأَحْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِي قَدْ حانَتْ. وَتَمَثَّلَتْ لِي نَصائِحُ والِدَيَّ وأَهْلِي، وَذَكَرْتُ كَلِماتِ أُمِّيَ الَّتِي كانَتْ تَقُولُها لِي وَالدُّمُوعُ مُتَحَدِّرَةٌ مِنْ مَآقِيها.[٧] وَأَيْقَنْتُ أَنَّ هذِهِ الْعاصِفَةَ لَيْسَتْ إِلاَّ عِقابًا عادِلًا وجَزاءً وِفاقًا.

واشْتَدَّ هِياجُ الْبَحْرِ واضْطِرابُه. وَرَأَيْتُ الْعاصِفَةَ الْهَوْجاءَ، وَهِيَ تُنْذِرُنا بِالْهَلاكِ — بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى — وَقَدْ أَوْشَكَ الْموْجُ أَنْ يَبْتَلِعَنا جَمِيعًا. وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْمِسَ قاعَ الْبَحْرِ، فَلَمْ أَرَ مَناصًا[٨] مِنَ الْمَوْتِ. وَنَذَرْتُ للهِ نَذْرًا أَلا أَرْكَبَ الْبَحْرَ ما حَيِيتُ بَعْدَ هذهِ الْمَرَّةِ، إِذا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلاكِ! وَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُنْقِذَنِي، لِأَعُودَ إِلَى أَبَوَيَّ تَائِبًا نادِمًا عَلَى عِصْيانِي وَمُخالَفَتِي، وَأُعاهِدَهُما[٩] عَلَى أَنْ أُطِيعَهُما فِي كلِّ ما يَأْمُرانِ بِهِ.

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي سَكَنَ الْهَوَاءُ، وهَدَأَ الْبَحْرُ. وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّنِي قَدْ تَعَوَّدْتُهُ وأَلِفْتُهُ بَعْضَ الْأُلْفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ — حِينَئِذٍ — قَدْ تَمَّ شِفائِي مِنَ الدُّوَارِ.[١٠]

ولَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ وغَرَبَتِ الشَّمْسُ وانْقَشَعَتِ السُّحُبُ،[١١] ظَهَرَتْ رَوْعَةُ الْبَحْرِ،[١٢] وجَمَالُ الطَّبِيعَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَهَبَّ عَلَيْنا فِي الْيَوْمِ التَّالِي نَسِيمٌ خَفِيفٌ. وأَصْبَحَ الْبَحْرُ كَالْمِرْآةِ الصَّافِيَةِ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعةُ فِي أَبْهَى حُلَلِها.[١٣] ورَأَيتُ مِنْ جَمالِ الْبَحْرِ — فِي ذلِكَ الْيَوْمِ — ما

---

[٤] تشق الماء.

[٥] تتقلب.

[٦] تشتد.

[٧] جوانب عينيها.

[٨] مخرجًا.

[٩] أحلف لهما.

[١٠] وجع يصيب الرأس من ركوب البحر.

[١١] زالت.

[١٢] حسن منظره.

[١٣] أجمل أثوابها.

أَنْسانِي هِياجَهُ واضْطِرابَهُ بِالْأَمْسِ، فَنَسِيتُ ذلِكَ النَّذْرَ الَّذِي نَذَرْتُهُ للهِ، والْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِي!

وَجاءَ إِلَيَّ صَدِيقِي يُرَبِّتُ كَتِفِي وَيَقولُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ الْآنَ؟ شَدَّ ما رَوَّعَكَ[١٤] الْبَحْرُ يا صَدِيقِي. وَما كانَ أَجْدَرَكَ[١٥] بِالشَّجاعَةِ، فَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُكَ خَوْفًا وَرُعْبًا حِينَ هَبَّتْ عَلَيْنا نَسَمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ.»

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا: «كَيْفَ تُسَمِّيها نَسَمَةً، وَهِيَ عاصِفَةٌ هَوْجاءُ مُرَوِّعَةٌ؟»

فَقالَ لِي: «وَكَيْفَ تُسَمِّيها عاصِفَةً؟ يا لَكَ مِنْ ساذَجٍ! إِنَّهَا نَسَمَةٌ خَفِيفَةٌ، طالَمَا أَلِفْناها وهَزِئْنا بِها، فَلا تَجْزَعْ مِنْ أَمْثالِها؛ فَأَنْتَ رَجُلٌ، وما أَجْدَرَ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شُجاعًا!»

(٣) فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ

وَقَدْ أَنْسَانِي هُدُوءُ الْبَحْرِ وَصَفاؤُهُ كُلَّ آلامِي وَأَحْزَانِي. وَشَغَلَنِيَ التَّأَمُّلُ فِي جَمَالِ الطَّبِيعَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَلَمْ يَنْقَضِ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيَّامٍ حَتَّى اطْمَأَنَّتْ نَفْسِي إِلَى حَياةِ الْبَحْرِ، وَلَمْ أَعُدْ أَذْكُرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي، وَنسِيتُ كلَّ ما زَوَّدُوني بهِ منْ نَصائِحَ. وَفِي صَباحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَنُفَتِ الرِّيحُ، وَاشْتَدَّتِ اشْتِدادًا لا مَثِيلَ لَهُ. وَبَدا الْقَلَقُ والِاضْطِرابُ عَلَى أَسارِيرِ الْمَلَّاحِينَ؛[١٦] فَأَنْزَلُوا أَشْرِعَةَ السَّفِينَةِ، وَتَأَهَّبُوا[١٧] لِمُلاقاةِ الْخَطَرِ وَجْهًا لِوَجْهٍ. وَلَمَّا جاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هِياجُ الْبَحْرِ، ودَبَّ الْيَأْسُ فِي نُفُوسِنا جَمِيعًا. وسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وقَدْ كانَ مِثالَ الشَّجاعَةِ والْحَزْمِ — وهُوَ يُنَاجِي نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خافِتٍ: «رَحْمَةً بِنا يا إِلَهي! فَقَدْ هَلَكْنا جَمِيعًا، ولَمْ يَبْقَ لَنا مَلْجَأٌ سِواكَ.»

---

[١٤] أزعجك.

[١٥] ما أحقك.

[١٦] خطوط جبينهم.

[١٧] استعدوا.

وامْتَلَأَتْ نَفْسِي رُعْبًا؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ تَرْتَفِعُ كالْجِبالِ، وتَنْقَضُّ[18] عَلَيْنا فِي كلِّ لَحْظَةٍ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْنا أَنَّهَا قَدِ ابْتَلَعَتْنا. ورَأَيْنا السُّفُنَ الْقَرِيبَةَ تُعانِي مِثْلَ ما نُعانِيهِ، وقَدْ غَرِقَتْ سَفينَةٌ كبِيرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَّا. وما انْتَصَفَ اللَّيْلُ حتَّى صَاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفاقِهِ النَّجْدَةَ والْغَوْثَ؛ فَقَدْ ثُقِبَتِ السَّفِينَةُ! وَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ، فَرَأَيْنا ثُغْرَةً[19] يَتَدَفَّقُ مِنْها الْمَاءُ. وتَعاونَّا جَمِيعًا عَلَى إِخْراجِ الْمَاءِ مِنَ السَّفِينَةِ. وأَطلَقَتْ إِحْدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا مِدْفَعًا، إِنْذَارًا بِالْخَطَرِ، وطَلَبًا لِلنَّجْدَةِ. وقَدْ أُغْمِيَ عَلَيَّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ.

وَلَمْ أُفِقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ. وَأَطْلَقَ رُبَّانُنا مِدْفَعًا، الْتِماسًا لِلنَّجْدَةِ، فَدَنَتْ مِنَّا سفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِإِنْقاذِنا، وحَمَلَتْنا إِلَى باخِرَةٍ قَرِيبَةٍ. ولَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْها إِلَّا بَعْدَ عَناءٍ[20] شَدِيدٍ.

وبَعْدَ دَقائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنا سَفِينَتَنا وهِيَ تَغْرَقُ. ومَضَى عَلَيْنا زَمَنٌ طَوِيلٌ ونَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ[21] لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى. ولَمْ نَبْلُغِ الشَّاطِئَ إِلا بَعْدَ أَنْ خَارَتْ[22] قُوانا ويَئِسْنا منَ النَّجاةِ.

(٤) بَعْدَ النَّجَاةِ مِنَ الْغَرَقِ

ولَقدْ كانَ جَديرًا بِي — بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بالسَّلامَةِ مِنَ الْغَرَقِ — أَنْ أَفِيَ بِنَذْرِي، وَأَعُودَ إِلَى أَهْلِي تائِبًا نادِمًا عَلَى ما فَرَط[23] مِنِّي. ولكِنَّ غُرورَ الشَّبابِ[24] حالَ بَيْنِي وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هذِهِ الفِكْرَةِ النَّبِيلَةِ، فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شَمَاتَةُ النَّاسِ بِي، وسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي؛ لِما لَحِقَنِي مِنَ النَّكَباتِ

[18] تسقط.

[19] خرقًا.

[20] تعب.

[21] متعرضون.

[22] ضعفت.

[23] ما سبق وقوعه.

[24] خداعه وباطله.

فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ. وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إذا عُدْتُ إلى أَهْلِي أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ. وَعَزَّ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَعْتَرِفَ بِخَطَئِي.

وَقَدْ كَلَّفَنِي هذا الْغُرُورُ ثَمَنًا غالِيًا جِدًّا؛ فَقَدْ دَفَعَنِيَ الْعِنادُ إِلَى اقْتِحامِ الْأَخْطارِ ورُكُوبِ الْبِحارِ، ولَقِيتُ مِنَ الْمَصائِبِ ما لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بالٍ.

فَعَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ سَافَرْتُ إلى «لَنْدَن» — عَلى مُرافَقَةِ جَماعَةٍ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إلى شَواطِئِ إفْرِيقيَّةَ. ولَمْ أَعْلَمْ ما يَخْبَؤُهُ لِي الْقَدَرُ مِنَ الْمَتَاعِبِ والْآلامِ.

الفصل الثاني

بَيْنَ الأسرِ وَالحرِّية

(١) رِحْلَةٌ مُوَقَّقَةٌ

كانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تكُونَ حَياتِي الْقابِلَةُ سِلْسِلَةً مِنَ الْكَوارِثِ[١] والنَّكَباتِ، فَلا أَخْلُص مِنْ مُصِيبَةٍ حَتَّى تُسْلِمَنِي إِلى أُخْرَى، وَلا أَنْجُوَ مِنْ مَأْزِقٍ[٢] حَتَّى أَقَعَ فِي مَأْزِقِ شَرٍّ منهُ؛ فَقَدْ أَغْضَبْتُ والِدَيَّ وأَهْلِي، وأَهْمَلْتُ نَصائِحَهُمْ، وخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلا إِذْنٍ مِنْهُمْ.

وَثَمَّةَ أَيْقَنْتُ أَنَّ ما حَلَّ بِي مِنَ الْكَوارِثِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِقابًا عادِلًا عَلَى تَمَرُّدِي وعِصْيانِي.

لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُواصَلَةِ السَّفَرِ، بَعْدَ أَنْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلى بَيْتِي مُخْفِقًا.[٣] وأَرَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ الْخَطَأَ الْأَوَّلَ بِخَطِيئَةٍ أُخْرَى، أَكْثَرَ شَناعَةً مِنْهُ. فَما صاحَبْتُ رُبَّانَ إِحْدَى السُّفُنِ — وكانَ أَوَّلَ شَخْصٍ لَقِيتُهُ مِنَ الْمَلَّاحِينَ — حَتَّى اعْتَزَمْتُ مُرافَقَتَهُ فِي رِحْلَتِهِ. وكانَتْ سَفِينَتُهُ ذاهِبَةً إِلَى شَواطِئِ «غانَةَ» وقَدْ أَخْبَرَنِي بِما لَقِيَ مِنْ نَجاحٍ، وَما أَفادَ مِنْ غِنًى وثَرْوَةٍ، فِي رِحْلَتِهِ الْأُولَى إِلى تِلْكَ الْبِلادِ. وَما تَعَرَّفَ قِصَّتِي حَتَّى شَجَّعَنِي عَلَى مُصاحَبَتِهِ، وَأَعْفانِي مِنْ نَفَقاتِ الرِّحْلَةِ. واقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ أَشْتَرِيَ — بِما مَعِيَ مِنَ النُّقُودِ — بَضائِعَ لِأَتَّجِرَ بِها فِي تِلْكَ الْبِلادِ؛ فَفَعَلْتُ كُلَّ ما أَشارَ بِهِ عَلَيَّ.

[١] المصائب.

[٢] ضيق وشدة.

[٣] خائبًا.

ونَجَحَتْ هذه الرِّحْلةُ. وقَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ فِي تَدْرِيبِي عَلَى الْمِلاحَةِ والتِّجارَةِ. وعُدْتُ إِلى «لَنْدَن» مُغْتَبِطًا راضِيًا بِما أَصَبْتُهُ مِنْ رِبْحٍ وتَوْفِيقٍ.

(٢) لُصُوصُ الْبَحْرِ

وبَعْدَ أَيَّامٍ قَليلةٍ تُوُفِّيَ ذلكَ الرُّبَّانُ؛ فَحَزِنْتُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا، ومَنَحْتُ أَرْمَلَتَهُ مِائَتَيْ جُنَيْهٍ. وَشَرَيْتُ بَضائِعَ بِمِائَةِ الْجُنَيْهِ الْباقِيَةِ مَعِي، وأَبْحَرْتُ إِلى «غانَةَ». ولكِنَّ رِحْلَتَنا — فِي هذهِ الْمَرَّةِ — لَمْ تَكُنْ مُوَفَّقَةً؛ فَقَدِ اعْتَرَضَنا لُصُوصُ الْبَحْرِ فِي الطَّرِيقِ، فَأَطْلَقْنا لِسَفِينَتِنا الْعِنانَ، وحاوَلْنا النَّجاةَ مِنْهُمْ. وكانَ فِي سَفِينَتِنا اثْنا عَشَرَ مِدْفَعًا، وَعِنْدَ أَعْدائِنا ثَمانِيَةَ عَشَرَ مِدْفَعًا. وكنَّا أَقَلَّ مِنْهُمْ عَدَدًا، ولكِنَّنا اسْتَبْسَلْنا فِي دِفاعِنا وقَهَرْناهُمْ مَرَّتَيْنِ. ثُمَّ كَرُّوا عَلَيْنا — فِي الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ — فَقَهَرُونا، وحَطَّمُوا قِلاعَنا، وقَتَلوا ثَلاثَةً مِنْ رِجالِنا، وجَرَحُوا ثَمَانِيَةً؛ فاضْطُرِرْنا إِلَى الْإِذْعانِ لَهُمْ، ووَقَعْنا فِي أَسْرِهِمْ.

(٣) الْعُبُودِيَّةُ

وقَدْ أُعْجِبَ الرُّبَّانُ بِنشاطِي؛ فاتَّخَذَنِي عَبْدًا لَهُ. ولَبِثْتُ فِي خِدْمَتِهِ عامَيْنِ كامِلَيْنِ، وأَنا أُفَكِّرُ فِي وَسِيْلَةٍ لِلْهَرَبِ فَلا أُوَفَّقُ. وكان كَثِيرًا ما يَصْحَبُنِي لِأَصْطادَ مَعَهُ، وَقَدْ وَثِقَ بِي فِي كُلِّ أَعْمالِهِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ طَلَبَ مِنِّي الرُّبَّانُ أَنْ أَصْطادُ سَمَكًا لِيَتَعَشَّى بهِ مَعَ ضُيُوفِهِ؛ فَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِلْهَرَبِ؛ فَقدْ تَرَكَ لِيَ الرُّبَّانُ سَفِينةَ الصَّيْدِ، ولَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِي إلاَّ فَتًى رَقِيقٌ، ورَجُلٌ مِنْ أَقارِبِ الرُّبَّان، فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ: «يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ لَنا زادًا[٤] نَأْكُلُهُ حتَّىَ لا نَشْرَكَ سَيِّدَنا فِي أَكْلِهِ.»

---

[٤] طعامًا.



فَأَقَرَّنِي على هذا الرَّأْيِ، وأَحْضَرَ لَنا سَلَّةً منَ الْفَطائِرِ الْيابِسَةِ والْخُشْكَنانِ،[٥] وثَلاثَ جَرَّاتٍ مَمْلُوءَةً ماءً. وذَهَبْتُ إِلَى مَخْزَنِ الرُّبَّانِ؛ فَأَحْضَرْتُ مَعِي فَأْسًا وقَدُومًا وحِبالًا، وطَلَبتُ مِنَ الرَّجُلِ أَنْ يُحْضِرَ لَنا بُنْدُقِيَّاتٍ، ورَصاصًا لِنَصْطادَ بِها، فَأَحْضَرَ لِي ما طَلَبْتُ.

وهكَذا أَعْدَدْتُ كلَّ مُعَدَّاتِ الْهَرَبِ.

[٥] البسكويت.

(٤) الْفِرارُ

لَقَدْ أَزْمَعْتُ الْفِرارَ،[٦] ولَمْ أَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ منَ النَّجاحِ، وَلٰكِنَّنِي أَيْقَنْتُ أَنَّ الْعَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ تَعْتَرِضُها، ما دامَ الْيَأْسُ لا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَيْها.

وَسِرْنا مَسافَةً طَوِيلَةً وَأَنا أُوهِمُ الرَّجُلَ أَنَّنِي جادٌّ فِي تَحْقِيقِ فِكْرَةِ الرُّبَّانِ. ثُمَّ غافَلْتُهُ وَقَذَفْتُ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ — وكانَ ماهِرًا فِي السِّباحَةِ — وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي، فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَى رَأْسِهِ، وهَدَّدْتُهُ بِالْقَتْلِ إِذا تَتَبَّعَنِي؛ فاضْطُرَّ لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنَ الظَّفَرِ بِي.

وسَأَلْتُ الْفَتَى: «أَتُعاهِدُنِي عَلَى الْوَفاءِ، أَمْ تَعُودُ أَدْراجَكَ كما عادَ هذا الرَّجُلُ؟ فَإِنِّي عامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذا لاحَ[٧] لِي مِنْكَ الْغَدْرُ.»

فابْتَسَمَ لِي الْفَتَى، وَأَقْسَمَ: إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطاعَةِ أَمْرِي والذَّهابِ مَعِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ. وَظَلِلْنا فِي سَيْرِنا خَمْسَةَ أَيَّامٍ، والرِّيحُ مُعْتَدِلَةٌ والبَحْرُ هادِئٌ وَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ اللِّحاقَ بِنا بَعْدَ ذلِكَ، فَلَمَّا حانَ الْمَساءُ دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ، واعْتَزَمْتُ قَضاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْهُ.

(٥) الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أَخْرُجَ لَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَتَعَرَّفَ: أَيْن نَحْنُ؟ وَلٰكِنَّنا سَمِعْنا أَصْواتًا مُرَوِّعَةً، وَأَحْسَسْنا أَنَّ وُحُوشًا تَزْأَرُ بِالْقُرْبِ مِنَّا؛ فَأَلَحَّ عَلَيَّ الْفَتَى أَلَّا أُغادِرَ الْمَرْكَبَ حَتَّى لا نَتَعَرَّضَ لِلْهَلاكِ.

وَقَضَيْنا لَيْلَتَنا ساهِرَيْنِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزانِ[٨] لِدَفْعِ غارَةِ هذِهِ الْوُحُوشِ،[٩] إِذا أَقْبَلَتْ نَحْوَنا.

[٦] اعتزمت الهرب.

[٧] ظهر.

[٨] متهيئان.

[٩] هجومها.



وَرَأَيْتُ سِرْبًا مِنْها يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنا؛ فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِها، فَعادَت الْوُحُوشُ أَدْراجَها، وَهِيَ تُزَمْجِرُ،[١٠] وَقَدْ تَمَلَّكَها الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَتْ دَوِيَّ الرَّصاصِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بِسَماعِهِ عَهْدٌ.

واشْتَدَّتْ حاجَتُنا إِلَى الْماءِ؛ فَأَرادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أبْقَى فِي السَّفِينَةِ، وَأَعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ الْجَرَّةَ، فَسَأَلْتُهُ: لِماذا يَتَشَبَّثُ[١١] بِالذَّهابِ؟

---

[١٠] تصيح.

[١١] يصر.



فقالَ لِي: «أُريدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْخَطَرِ وَحْدِي، فإذا قُتِلْتُ فِي الطَّريقِ سَهُلَ عَلَيْكَ أَنْ تَنْجُوَ بِنَفْسِكَ.»

فَأَكْبَرْتُ[١٢] إِخْلاصَهُ، وَأَبَيْتُ إِلَّا الذَّهابَ مَعَهُ. وَرَسَوْنا بِالْقُرْبِ مِن الشَّاطِئِ؛ وابْتَعَدَ الْفَتَى عَنِّي قَلِيلًا، ثُمَّ عادَ مُسْرِعًا وَقَدِ اصْطادَ أَرْنَبًا، واهْتَدَى إِلَى مَكانِ الْماءِ. وَثَمَّ[١٣] أَكَلْنا الْأَرْنَبَ مَسْرُورَيْنِ واسْتَأْنَفْنا السَّيْرَ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ.

[١٢] عَظَّمْتُ.

[١٣] هناك.

(٦) صَيْدُ الْأَسَدِ

والْتَفتَ إِلَيَّ الْفَتَى فَجْأَةً يَحْتَثُّنِي[١٤] عَلَى أَنْ أَبْعُدَ عَنِ الشَّاطِئِ، وَكانَ بَصَرُهُ حَدِيدًا؛[١٥] فَلَمَحْتُ أَسَدًا جاثِمًا مِنْ بَعِيدٍ، وكانَ ضَخْمَ الْجِسْمِ.

وَقدِ اشْتَدَّ ذُعْرُ الْفَتَى مِنْهُ؛ فَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَسْكُنَ حَتَّى لا يُنَبِّهَ الْأَسَدَ. ثُمَّ حَشَوْتُ بُنْدُقِيَّاتِيَ الثَّلاثَ رَصاصًا، وَصَوَّبْتُ الْأُولَى إِلَى رأْسِهِ، وَهُوَ نَائِمٌ. وَكانَ الْأَسَدُ واضِعًا إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى فِيهِ؛[١٦] فَأَصابَتِ الرَّصاصَةُ ساقَهُ، فَحَطَّمَتْ عَظْمَها، فَوَقَفَ مَذْعُورًا عَلَى سُوقِهِ الثَّلاثِ، واشْتَدَّ زَئِيرُهُ؛ فَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ رَصاصَةً ثانِيَةً، فَخَرَّ[١٧] صَرِيعًا مُجَدَّلًا[١٨] يَتَشَحَّطُ[١٩] فِي دَمِهِ. وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ، فَأَفْرَغَ رَصاصَةً فِي أُذُنِهِ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ ساعَتِهِ.

وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى ما فَعَلْتُ؛ فَقَدْ أَضَعْتُ ثَلاثَ رَصاصاتٍ فِي قَتْلَةِ الْأَسَدِ، وَلَيْسَ لنا فِي لَحْمِهِ غِذاءٌ.

وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلى الْأَسَدِ، وَحاوَلَ أَنْ يَقْطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ، فاكْتَفَى بِقَطْعِ إِحْدَى يَدَيْهِ، وَحَمَلَها إِلَيَّ. ثُمَّ تَعاوَنَّا عَلَى سَلْخِهِ فِي مَدَى يَوْمٍ كامِلٍ، وَجَفَّفَتْهُ الشَّمْسُ فِي مَدَى يَوْمَيْنِ، ثُمَّ أَبْحَرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ — صَوْبَ الْجَنُوبِ — وَقَدْ أَوْشَكَ زادُنا أَنْ يَنْتَهِيَ. ثُمَّ سِرْنا عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى الْسُّفُنِ الذَّاهِبَةِ مِنْ «أُورُبَّةَ» إِلَى «غانَةَ» أَوِ الْآتِيَةِ مِنْ «غانَةَ» إِلَى «أُورُبَّةَ». وَلَمْ يَكُنْ يُعَزِّينا[٢٠] فِي رِحْلَتِنا شَيْءٌ سِوَى هذا الْأَمَلِ، فَإِذا أَخْفَقَ فَلَيْسَ أَمامَنا إِلا الْهَلاكُ.

---

[١٤] يستعجلني.

[١٥] قَوِيًّا.

[١٦] فمه.

[١٧] سقط.

[١٨] مرتميًا.

[١٩] يضطرب.

[٢٠] يصبرنا.



(٧) عَلَى الشَّاطِئ

وَرَأَيْنا جَماعَةً مِنَ الرِّجالِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ وَهُمْ عُراةٌ. وَقَدْ أَرَدْتُ الذَّهابَ إِلَيْهِمْ، فَحَوَّلَنِي الْفَتى عَنْ هذا الْعَزْمِ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ، ما عَدا رَجُلًا مِنْهُمْ كان يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً. فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي جائِعٌ، فَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَرْسُوَ قَرِيبًا. وَأَسْرَعَ اثْنانِ مِنْهُمْ فَأَحْضَرا إِلَيَّ خُبْزًا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ اللَّحْمِ بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ.

وَكُنَّا خائِفَيْنِ مِنْهُمْ، كَما كانوا خائِفِينَ مِنَّا؛ فَما وَضَعَ الرَّجُلانِ ما أَحْضَراهُ لَنا عَلَى الشَّاطِئِ حَتَّى تَقَهْقَرا رَجاءَ أَنْ يَأْمَنا شَرَّنا. فَلَمَّا أَخَذْنا الزَّادَ وَرَجَعْنا إِلى السَّفِينَةِ، عادا إِلى الشَّاطِئِ عِنْدَ إِخْوانِهِما. وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا ما نُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ، فاكْتَفَيْنا بِشُكْرِهِمْ.

وَإِنَّنا لَكَذلِكَ، إِذْ أَقْبَلَ وَحْشانِ هائِلانِ، أَحَدُهُما يَجْرِي خَلْفَ الْآخَرِ مِنَ الْجَبَلِ إِلى الْبَحْرِ. فَفَرَّ الرِّجالُ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا حامِلُ الْعَصا. ثُمَّ هَوَى الْوَحْشانِ إِلى الْبَحْرِ يَسْبَحانِ وَيَلْهُوانِ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَحَدُهُما إِلى مَرْكَبِنا حَتَّى كادَ يُدانِينا. فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى رَأْسِهِ؛

فَصَرَعَتْهُ مِنْ فَوْرِهِ.[٢١] وظَلَّ يَهْوِي إِلى الْقاعِ مَرَّةً، ويَطْفُو[٢٢] عَلَى سَطْحِ الْماءِ مَرَّةً أُخْرَى، وهُوَ يَعْدُو[٢٣] نَحْوَ الشَّاطِئِ. ولكِنَّهُ ماتَ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ، وهَرَبَ الْحَيَوانُ الْآخَرُ إِلَى الْجَبَلِ. وَضَجَّ الرِّجالُ إِعْجابًا بِنا، وَدَهْشَةً مِنَّا. عَلَى أَنَّهُمْ قَدِ اشْتَدَّ رُعْبُهُمْ، وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْرِ، فَأَشَرْتُ إِلَيْهِمْ لِأُطَمْئِنَهُمْ حَتَّى زالَ خَوْفُهُمْ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ.

ثُمَّ تَعاوَنُوا عَلَى سَلْخِ ذلِكَ الْحَيَوانِ، وقَدَّمُوا إِلَيَّ جُزْءًا مِنْ لَحْمِهِ لِآكُلَهُ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ، وشَكَرْتُ لَهُمْ ذلِكَ، واكْتَفَيْتُ بِجِلْدِ الْحَيَوانِ، فَأَعْطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زادِهِمْ.

فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شاكِرًا مَسْرُورًا، ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي فِي حاجَةٍ إِلَى الْماءِ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْجَرَّةَ فارِغَةً. ففَهِمُوا ما طَلَبْتُ، وَمَلَئُوها لِي مِنْ فَوْرِهِمْ ثُمَّ حَيَّيْتُهُمْ وانْصَرَفْتُ مُسْتَأْنِفًا[٢٤] سَيْرِي نَحْوَ الْجَنُوبِ. وما زِلْتُ كَذلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا.

(٨) الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَكانَ مَرْكبِي يَسِيرُ فِي الْبَحْرِ مُعْتَسِفًا،[٢٥] وَقدْ كِدْتُ أَفْقِدُ الْأَمَلَ فِي النَّجاةِ. وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي إِلَى أَيِّ مَكانٍ أَذْهَبُ؟ وأَيَّ غايةٍ أُيَمِّمُ[٢٦]؟ واشْتَدَّ ارْتِباكِي، وَزادَ نَدَمِي عَلَى ما أَسْلَفْتُ مِنْ عِصْيانِ وَالِدَيَّ. وَذَكَرْتُ ما جَرَّنِي إِلَيْهِ الْغُرُورُ والْحَماقَةُ؛ فاسْتَغْفَرْتُ اللهَ نادِمًا عَلَى ما فَرَطَ مِنِّي، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُيَسِّرَ لِيَ طَرِيقَ الْخَلاصِ.

وَإِنِّي لَغارِقٌ فِي هذِهِ التَّأَمُّلاتِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَتَى عَلَيَّ وَهُوَ يَصِيحُ، وَقَدْ كادَ الْخَوْفُ يَعْقِدُ لِسانَهُ: «انْظُرْ هذِهِ السَّفِينَةَ الْكَبِيرَةَ يا سَيِّدِي، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ الرُّبَّانِ.»

أَمَّا أَنا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْنا.

---

[٢١] قتلته للحال.

[٢٢] يعلو.

[٢٣] يجري.

[٢٤] عائدًا إلى.

[٢٥] ضالًّا على غير هدى.

[٢٦] أقصد.



وَما رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ، عَلَى بُعْدِ الْمَسافَةِ، أَنَّهَا بُرْتُغالِيَّةٌ.

وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي الدُّنُوِّ[٢٧] مِنَ السَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ راكِبِيها فلَمْ أُفْلِحْ؛ فَيَئِسْتُ مِنَ اللِّحاقِ بِهِمْ. ولكِنَّ أَحَدَهُمْ رَآنِي بِمِجْهَرِهِ[٢٨] وقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِي، لِأُشْعِرَهُمْ أَنَّنِي فِي خَطَرٍ.

وقد اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهْدٍ كَبيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلاثِ ساعاتٍ.

وَما عَرَفُوا قِصَّتِي، حَتَّى أَكْرَمُوا وفادَتِي؛[٢٩] فَأَهْدَيْتُ إِلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ كُلَّ ما مَعِي، فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزاءً لهُ عَلَى صُنْعِهِ.

وقَدْ فاضَ قَلْبِي سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِي فِي النَّجاةِ.

---

[٢٧] القرب.

[٢٨] بمنظاره المكبر.

[٢٩] قدومي.

(٩) فِي الطَّرِيقِ إِلَى «الْبَرَازِيلِ»

وكانَتِ السَّفِينَةُ ذاهِبَةً إلى «الْبَرَازِيلِ». وقَدْ حَظَرَ الرُّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أَنْ يَمَسُّوا شَيْئًا مِنْ مَتاعي. وقَدِ اشْتَرَى مَرْكَبِي بِثَمانِينَ جُنَيْهًا، واشْتَرَى الْفَتى مِنِّي بِستِّينَ جُنَيهًا. ولَمْ يَكُنْ بَيْعُ الْفَتَى الْمِسْكِينِ بِمَحْضِ رَغْبَتِي،[٣٠] وما كانَ لِيُرْضِيَنِي أَنْ أَتْرُكَهُ رَقِيقًا،[٣١] ولكِنَّ الرُّبَّانَ وَعَدَنِي بِإِطْلَاقِ سَراحِهِ[٣٢] بَعْدَ عَشْرِ سَنَواتٍ، فَقَبِلتُ ذلكَ مُرْغَمًا.

وكانَتْ رِحْلَةً سَعِيدةً مُرِيحَةً مُوَفَّقَةً. وقَدْ وصَلْنا إِلَى «الْبرازِيلِ» بَعْدَ اثنَيْنِ وعِشْرِينَ يَوْمًا.

(١٠) فِي «الْبَرازِيلِ»

وقَدْ عَرَّفَنِي الرُّبَّانُ بِأَحَدِ أَعْيانِ «الْبَرازِيلِ» — وكانَ يَمْلِكُ مَزْرَعَةً لِلْقَصَبِ ومَصْنَعًا لِلسُّكَّرِ — وأَوْصاهُ بِي خَيْرًا؛ فَشَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ عِنايَتَهُ بِي وفَضْلَهُ عَلَيَّ.

وَنَفَعَتْنِي صُحْبَةُ هذا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ؛ فَقَدْ عَلَّمَني كَيْفَ أَزْرَعُ الْقَصبَ، وكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ الْسُّكَّرَ. وما مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ أَعْوامٍ حَتى نَجَحَتْ أَعْمالِي كُلُّها، وأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ.

وكُنْتُ كُلَّما ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِفراقِهِ، واشْتَدَّ حَنِينِي إِلَيْهِ، ونَدَمِي عَلَى تَرْكِهِ.

وتَعَرَّفْتُ — فِي أَثْناءِ إِقامَتِي — بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّارِعِينَ فِي تِلْكَ الْبِلاَدِ. فَكُنَّا نَسْمُرُ[٣٣] فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ، وكُنْتُ أَذْكُرُ لَهُمْ ما وَقَعَ لِي فِي أَثْناءِ رِحْلَتِي إِلَى «غَانَةَ»؛ وكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوالٍ طائِلَةٍ مِنَ الاتِّجَارِ بِأَشْياءَ تافِهَةٍ كالْمِقَصَّاتِ والْمُدَى[٣٤] والْمَرايَا وَما إِلَىَ ذلكَ، فاشْتَدَّتْ رَغْبتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى «غَانَةَ»، وأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً، وطَلَبُوا إِلَيَّ أَنْ أُرافِقَهُمْ فِي هذِهِ الرِّحْلَةِ؛ فَعاوَدَنِي

[٣٠] خالص إرادتي.
[٣١] عبدًا.
[٣٢] تركه حرًّا.
[٣٣] نتحدث ليلًا.
[٣٤] السكاكين.

الْحَنِينُ إِلَى الْبَحْرِ، وعَهِدْتُ إِلَى بَعْضِ أَصْحابِي أَنْ يُعْنَى بِمَزْرَعَتِي ومَصْنَعِي فِي أَثْناءِ غِيابِي.

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ فِي أَوَّلِ سِبْتَمْبَر/أيلول ١٦٥٩م، وهُوَ نَظِيْرُ الْيَوْمِ الَّذِي غادَرْتُ فِيهِ وَطَنِي واسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقاءِ، مُنْذُ ثَمانِيَةِ أَعْوامٍ.

الفصل الثالث

فِي جَزيرَة نائِية

(١) هُبُوبُ الْعاصِفَةِ

كانَتِ السَّفِينَةُ الَّتِي أَعْدَدْناها[١] لِهذِهِ الرِّحْلَةِ سَفِينَةً كَبيرَةً، قادِرَةً عَلَى حَمْلِ مِائَةٍ وعِشْرِينَ طُنًّا. وقَدْ زَوَّدْناها بِسِتَّةِ مَدافِعَ، واخْتَرْنا لَها أَرْبَعَةً وعِشْرينَ مَلَّاحًا.

وقَدْ وَضَعْنا فِيها الْبَضائِعَ الَّتي شَرَيْناها لِنَتَّجِرَ بِها فِي بِلادِ «إفْرِيقِيَّةَ»، وهِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ مِقَصَّاتٍ وفُئُوسٍ ومَطارِقَ ومَرايا صَغِيرَةٍ وأَزِرَّةٍ لِلمَلابِسِ وَما إِلَى ذلكَ.

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنا السَّفِينَةُ مُيَمِّمَةً[٢] شاطِئَ «إفْرِيقِيَّةَ».

وقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنا — فِي الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ — عاصِفَةٌ هَوْجاءُ لَبِثَتِ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، لا تَهْدَأُ إِلَّا رَيْثَما تَشْتَدُّ وتَعْنُفُ، وَلا تَمُرُّ بِنا لَحْظَةٌ إِلَّا أَنْذَرَتْنا بِالْغَرَقِ.

وهكذا ظَلِلْنا نَتَرَقَّبُ الْهَلاكَ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنا طَرِيقَنا فِي الْبَحْرِ، خِلالَ هذهِ الْأَيَّامِ الَّتِي هَبَّتْ فِيها الْعاصِفَةُ.

(٢) زَوْرَقُ النَّجاةِ

ثُمَّ رَأَيْنَا — عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ — أَرْضَا تَبْدُو لَنَا مِنْ بَعيدٍ؛ فَلاحَ لَنا أَمَلٌ كَبيرٌ فِي النَّجاةِ. ولكِنَّنا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنا ذلِكَ الْأَمَلَ، وحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ والْقُنُوطُ، فَقَدْ قَذَفَتِ الْعاصِفَةُ

---

[١] هيأناها.

[٢] قاصدة.



بِسَفِينَتِنا إِلى كَثِيبٍ[٣] مِنَ الرَّمْلِ. وكانَتِ الصَّدْمَةُ قَوِيَّةً عَنِيفَةً؛ فَتَعَطَّلَتِ السَّفِينَةُ، وغَمَرَتْها الْأَمْواجُ الْهائِجَةُ؛ فَلَمْ نَجِدْ مَنَ الْهَلاكِ بُدًّا، وعَرَفْنا أَنَّ آخِرَتَنا قَدْ دَنَتْ.

عَلَى أَنَّنا لَمْ نَسْتَسْلِمْ لِليأْسِ؛ فَأَسْرَعْنا إِلَىَ زَوْرَقِ النَّجَاةِ، فأَنْزَلْناهُ فِي الْبَحْرِ، وَبَذَلْنا كُلَّ ما فِي وُسْعِنا لِلْخَلاصِ. وظَلِلنا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوَانا، حَتَّى أَصْبَحْنا عَلَى مَسافَةِ ميلٍ ونِصْفِ

---

[٣] تل.



ميلٍ مِنَ الشَّاطِئ، حَيْثُ دَهِمَتْنا[٤] مَوْجَةٌ طاغِيَةٌ؛ فَخُيِّلَ إِلَينا أَنَّ جَبَلًا مِنَ الْماءِ قَد انْقَضَّ[٥] عَليْنا، فانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ فِي الْحالِ.

ولَمْ أَرَ بِجانِبِي أَحَدًا مِنْ رِفاقِي، ولَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذلكَ مَصِيرَهُمْ.[٦]

(٣) النَّجاةُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أنا فَقَدْ لَعِبَتْ بِيَ الْأَمْواجُ، ثُمَّ قَذَفتْ بِي إِلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ، وكانَتِ الصَّدْمَةُ عَنِيفَةً، فَأُغْمِيَ عَلَيَّ، ثُمَّ أَفَقْتُ بعْدَ قَليلٍ. وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّنِي أَفَقْتُ قَبْلَ أن يَسْتَأْنِفَ الْبَحْرُ ثَوْرَتَهُ.

[٤] غمرتنا.

[٥] سقط.

[٦] نهايتهم.

وَما رأَيْتُ الْمَوْجَةَ قادِمَةً عَلَيَّ — لِتَبْتَلِعَنِي فِي طَيِّها — حَتَّى أَمْسَكْتُ بِالصَّخْرَةِ مُتَشَبِّثًا بِكُلِّ قُوَّتِي، حَتَّى تَنْحَدِرَ[٧] الْمِياهُ عَنِّي.

ثُمَّ هَدَأَتْ ثائِرَةُ الْبَحْرِ قَليلًا؛ فَحاوَلْتُ إِمْكانِي، وَبَذَلْتُ جُهْدِي، حَتَّى بَلَغْتُ الشَّاطِئَ، وأنا لا أكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ مِنَ الْغَرَقِ.

(٤) بَعْدَ النَّجاةِ

وشَعَرْتُ بِفَرَحٍ شَديدٍ حينَ رَأَيْتُنِي قَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْهَلاكِ. وأَجْلَتُ لِحاظِي[٨] فِي أَنْحاءِ الْبَحْرِ، أتلَمَّسُ رُؤْيَةَ أَحَدٍ مِنْ رِفاقِي؛ فَلَمْ أَرَ إِلَّا قُبَّعاتٍ ثَلاثًا، وقَلَنْسُوَةً[٩] وَنَعْلًا، طافِيَةً عَلَى سَطْحِ الْماءِ. فَأَيْقَنْتُ أَنَّ رِفاقِي جَمِيعًا قَدْ هَلَكُوا، وَلَمْ تُكْتَبْ لَهُمُ النَّجاةُ.

وَقَدْ تأَلَّمْتُ لِمَوْتِ هؤُلاءِ الْأَصْحابِ، كما تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا؛ فَقَدْ كُنْتُ — حِينَئِذٍ — فِي حالٍ يُرْثى لَهَا،[١٠] فَثِيابِي مُبْتَلَّةٌ، وَلَيْسَ مَعِي ثِيابٌ أَسْتَبْدِلُها بِها.

وَشَعَرْتُ بِأَلَم الْجُوعِ، وَلَيْسَ عِنْدِي ما أَتَبَلَّغُ بِهِ.[١١] وَأَلَحَّ[١٢] عَلَيَّ الضَعْفُ، وَتَخَاذَلَتْ أَعْضائِي، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِرْدادِ قُوايَ بَعْدَ أَنْ أَضْناها التَّعَبُ والْكِفاحُ.

(٥) بَيْنَ أَغْصانِ شَجَرَةٍ

وَخَشِيتُ أَنْ يَدْهَمَنِي[١٣] اللَّيْلُ؛ فَأُصْبِحَ فَرِيسَةً لِلْوُحُوشِ، وَلَيْسَ مَعِي سِلاحٌ أَصْطادُ بِهِ — مِنَ الْحَيَوانِ — ما أَقْتاتُ بِهِ، أَوْ أَدْفَعُ بِهِ عَنِّي غائِلَةَ الْوُحُوشِ الْعادِيَةِ[١٤] إِذا حاوَلَتِ

[٧] تنصرف.

[٨] أدرت عيني.

[٩] غطاء رأس.

[١٠] تدعو إلى الشفقة.

[١١] ما أستبقي به الحياة من الطعام.

[١٢] اشتد.

[١٣] يفاجئني.

[١٤] شر الحيوانات المفترسة.



افْتِرَاسِي. فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ — حِينَئِذٍ — غَيْرُ مُدْيَةٍ[١٥] لا غَناءَ فِيها.[١٦] فَتَمَثَّلَ لِي حَرَجُ مَرْكَزِي، ورَأيتُ الْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوبًا[١٧] مُظلمًا. وصِرْتُ أعْدُو[١٨] فِي كُلِّ مَكانٍ، وَقَدْ أَذْهَلَنِي الْفَزَعُ، وأنْسانِي الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ.

---

[١٥] سكينة.

[١٦] لا فائدة منها.

[١٧] مَخُوفًا.

[١٨] أجري.

ثُمَّ أَقْبَلَ اللَّيْلُ؛ فَاشْتدَّ رُعْبِي، وَلَمْ أَجِدْ لِي مَناصًا[١٩] مِنَ التَّفْكِيرِ فِي مَكانِ نَوْمِي، فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالْقُرْبِ مِنِّي، وَجَلَسْتُ بَيْنَ أَغْصانِها الْمُشْتَبِكَةِ. وَكُنْتُ قَدْ وصَلْتُ إِلَى أَقصَى دَرَجاتِ الإِعْياءِ والتَّعَبِ؛ فَغلَبَنِي النَّوْمُ طُولَ لَيْلِي، وَلَمْ أَسْتَيْقِظْ إِلاَّ فِي ضُحَى الْغَدِ؛ فَرَأَيتُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً، والْجَوَّ صَحْوًا، والْبَحْرَ هادِئًا جَمِيلًا.



(٦) السَّفِينَةُ

وَأَجَلْتُ لِحاظِي[٢٠] فِي أَرْجاءِ الْبَحْرِ؛ فاشْتَدَّتْ دَهْشَتِي حِينَ رَأَيتُ السَّفِينَةَ جاثِمَةً[٢١] عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِن الْجَزِيرَةِ. وكانَ الْمَدُّ[٢٢] قَدْ أَخْرَجَها مِنَ الْكَثِيبِ،[٢٣] وقَذَفَ بِها قَرِيبًا مِنَ الصَّخْرَةِ

[١٩] نجاة.

[٢٠] درت ببصري.

[٢١] باقية.

[٢٢] امتداد الماء.

[٢٣] التل من الرمل.

الَّتِي قَذَفَتْنِي إِلَيْها الْأَمْواجُ أَمْسِ. فَعَنَّ[٢٤] لِي رَأْيٌ سَدِيدٌ،[٢٥] ذلِكَ: هُوَ أَنْ أُسْرِعَ إِلَيْها، فَآخُذَ مِنْها أَهمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي هذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ، قَبْلَ أَنْ تَطْغَى الْأَمْواجُ على السَّفِينَةِ، وَيَطْوِيَهَا الْبَحْرُ فِي قَرارِهِ. وشَجَّعَنِي عَلَى ذلِكَ هُدُوءُ الْبَحْرِ وانْخِفاضُ الْمَدِّ.

وَكانتِ الْحَرارَةُ شَدِيدَةً وقْتَ الظَّهِيرَةِ؛ فَخَلَعْتُ ثِيابِي، وسَبَحْتُ فِي الْمَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ. وَدُرْتُ حَوْلَهَا؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً لِلصُّعُودِ إِلَيْها لِارْتفاعِها. وقَدْ كِدْتُ أَيْأَسُ مِنْ إِدْراكِ هذهِ الْغايَةِ، لَوْلا أَنَّنِي ظَفِرْتُ بِحَبْلٍ مُتَدَلٍّ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ. ورَأَيتُ الْماءَ قَدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ؛ ولكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَها، وَلَمْ يُتْلِفْ كُلَّ ما تَحْوِيهِ مِنْ مَئُونَةٍ وذَخائِرَ. وكانَ أَوَّلَ ما يَشْغَلُنِي — حينَئِذٍ — هُوَ الْبَحْثُ عَنِ الطَّعامِ والْماءِ. فأَكَلْتُ مِنَ الزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ، وشَرِبْتُ مِنَ الْماءِ حَتَّى ارْتَوَيْتُ.

(٧) الْمَرْكَبُ الصَّغِيرُ

وَلَمْ أُضِعْ وَقْتِي عَبَثًا، فَأَسْرَعْتُ إِلَى جَمْعِ الْأَلْواحِ الْمُتَناثِرَةِ، والْأَعْمِدَةِ الْمُحَطَّمَةِ، والْأَشْرِعَةِ الْمُمَزَّقَةِ، وأَلَّفْتُ مِنْها مَرْكَبًا صَغِيرًا. ثُمَّ كَسَرْتُ ثَلاثَةَ صَنادِيقَ وأَفْرَغْتُ ما فِيها. ثُمَّ أَنْزَلْتُها بِالْحِبالِ إلى ذلِكَ الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ، ومَلَأْتُها بِالْخُبْزِ والرُّزِّ والْجُبْنِ والْقَدِيدِ[٢٦] ورَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ كَمِّيَّةً قَلِيلَةً مِنَ الْقَمْحِ والشَّعِيرِ والْبُرْغُلِ، كُنَّا قَدْ أَحْضَرْناها لِتغْذِيَةِ طُيُورِنا ودَواجِنِنا؛ فوَضَعْتُها فِي أَحَدِ الصَّنادِيقِ.

وإِنِّي لَمُنْهَمِكٌ فِي عَمَلِي، إِذْ لاحَتْ مِنِّي الْتِفاتَةٌ؛ فَرَأَيْتُ الْمَدَّ يَرْتَفِعُ إِلى الشَّاطِئِ وَيَجْذِبُ ثِيابِيَ الْغَرِيقَةَ. وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُها طافِيَةً عَلَى وَجْهِ الْماءِ.

[٢٤] خطر.

[٢٥] صائب.

[٢٦] اللحم اليابس المحفوظ.



عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ فِي السَّفِينَةِ — مِنَ الثِّيابِ — ما عَوَّضَنِي عَنْها. فَأَخَذْتُ مِنْها ما اسْتَطَعْتُ، وحَمَلْتُ مَعِي — مِنَ الْآلاتِ وَالْعِدَدِ — ما لا غِنَى لِي عَنْهُ. وَقَدْ ظَفِرْتُ بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ؛ فَكانَ عِنْدِي أُثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ الْأَرْضِ قاطِبَةً،[٢٧] فَأَلْقَيْتُ بِهِ فِي الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ.

---

[٢٧] جميعًا



وَظَفِرْتُ — فِي أَثْناءِ بَحْثِي — بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقِيَّتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَعْلُوهُمَا الصَّدَأُ، وَكيسٍ مِنَ الرَّصاصِ، وَعِدَّةِ أَكْياسٍ من الْبارُودِ.

وَكانَ بِالسَّفِينَةِ بَرامِيلُ ثَلاثَةٌ مَمْلُوءَةٌ بارُودًا، فَبَحَثْتُ عَنْها حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْها؛ فَرَأَيْتُ الْماءَ قَدْ أَتْلَفَ بَرْمِيلًا مِنْها. فَحَمَلْتُ الْبَرْمِيلَيْنِ الْباقِيَيْنِ إِلَى الْمَرْكَبِ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذْهَبَ بِمَرْكَبِي إِلى الشَّاطِئِ. وَظَفِرْتُ — بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ — بِثَلاثَةِ مَجادِيفَ مُحَطَّمَةٍ، وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ؛ فاسْتَوْدَعْتُها سَفِينَتِي.[٢٨]

وَحَمَلَنِيَ الْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ، حَيْثُ انْتَهَى بِي إِلى مكانٍ لا يَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْمَكانِ الَّذِي حَلَلْتُ فيهِ أَمْسِ.

[٢٨] حفظتها فيها.



الفصل الرابع

الوطنُ الجديد

(١) عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كان أَوَّلَ ما عُنِيتُ بِهِ أَنْ أَرْتادَ[١] هذِهِ الْأَرْضَ الْمَجْهُولَةَ الَّتى قَذَفَتْنِي إِلَيْها الْمَقادِيرُ، لَعَلِّي أَهْتَدِي إِلى مَسْكَنٍ آوِي إِلَيْهِ.

وَكُنْتُ — حِينَئِذٍ — أَجْهَلُ كلَّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ، فَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ: هَلْ قَذَفَتْنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى جَزِيرَةٍ أُمْ قارَّةٍ؟ إِلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ، أَمْ مُوحِشَةٍ؟ إِلى مَكانٍ أَمِينٍ مُطْمَئِنٍّ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ؟ إلى أَرْضٍ يَقْطُنها الْمُتَحَضِّرُونَ، أَمِ الْهَمَجُ، أَمِ الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ؟

وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي أَنْحائِها؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شاهِقًا يَلُوحُ لِي عَلَى مَسافَةِ مِيلٍ تَقْرِيبًا، فَأَخَذْتُ بُنْدُقِيَّةً وَمُسَدَّسًا، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ فَرَأَيْتُهُ وَعْرَ الْمُرْتَقَى،[٢] وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إِلا بَعْدَ عَناءٍ شَدِيدٍ. وَقَدْ تَمَلَّكَنِيَ الْحُزْنُ والْأَلَمُ، إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَكانَ الَّذِي حَلَلْتُهُ لَيْسَ إِلَّا جَزِيرَةً. وكُنْتُ — كَيْفَما أَدَرْتُ لِحَاظِي — لا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ يَكْتَنِفُ هذِهِ الْجَزِيرَةَ،[٣] وشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحَانِ لِي عَلَى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْيالٍ غَرْبًا.

---

[١] أتعرف.

[٢] صعب المصعد.

[٣] يحيط بها.

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِي حَلَلْتُها عازِبَةٌ،[٤] قَفْراءُ غَيْرُ مَأْهُولةٍ،[٥] اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيها وُحُوشٌ مُفْتَرِسَةٌ. أَمَّا الْإِنْسُ فَلا سَبيلَ إِلى وُجُودِهِمْ فِي هذهِ الْجَزيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقاحِلَةِ.[٦]

(٢) الطَّلْقَةُ الْأُولَى

عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ جَمْهَرَةً[٧] مِنَ الطُّيُورِ الْغَرِيبَةِ — وَأَنا عائِدٌ إِلى حَيْثُ جِئْتُ — فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّتِي إِلَىَ طائِرٍ مِنْها كانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجارِ الْغابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي.

ولَعَلَّ هذِهِ هِي أَوَّلُ مَرَّةٍ تُطْلَقُ فِيها بُنْدُقِيَّةٌ فِي تِلْكَ الْجَزيرَةِ!

وَقَدْ ذُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هذهِ الطَّلْقَةَ الْمُفَزِّعَةَ، واشْتَدَّ ارْتِباكُها، وَعَلَتْ صَيْحاتُها. ورَأَيْتُ هذا الطَّائِرَ يُشْبِهُ الْباشِقَ، وإِنْ كانَ قَليلَ اللَّحْمِ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ.

(٣) كُوخٌ مِنْ صَنادِيقَ

ثُمَّ عُدْتُ أَدْراجِي[٨] وَظَلِلْتُ أُفْرِغُ ما أَحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ وَأُرَتِّبُهُ، حَتَّى انْقَضَى النَّهارُ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ؛ فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَنامُ مُطْمَئِنًّا، آمِنًا منْ غارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ — بَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ — إِلى طَرِيقَةٍ ناجِحَةٍ؛ فَأَدْنَيْتُ[٩] الصَّنادِيقَ الَّتِي أَحْضَرْتُها منَ السَّفينَةِ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ منْها كُوخًا آوِي إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ. وَرَأَيْتُنِي فِي حاجَةٍ إِلى حِبالِ السَّفِينَةِ وَأَشْرِعَتِها؛ فَنَوَيْتُ الذَّهابَ إِلَيْها فِي الْيومِ التَّالِي وَقْتَ انْخِفاضِ الْمَدِّ، قَبْلَ أَنْ تُغْرِقَها أَوَّلُ عاصِفَةٍ تَهُبُّ عليْها مِنَ الْبَحْرِ.

---

[٤] بعيدة.

[٥] لا يسكنها أحد.

[٦] التي لا نبات فيها.

[٧] جماعة.

[٨] رجعت من حيث أتيت.

[٩] قربت.

(٤) عَوْدَةٌ إِلَىَ السَّفينَةِ

ولَمَّا جاءَ الْغَدُ خَلَعْتُ مَلابِسِي إِلَّا قَمِيصًا مُمَزَّقًا وسِرْوالًا ونَعْلًا خَفيفةً، وَذَهَبْتُ إِلى السَّفِينَةِ، وأَحْضَرْتُ منْها كَثيرًا مِنَ الذَّخائِرِ[١٠] الَّتِي كُنْتُ فِي أَشَدِّ الْحاجَةِ إِلَيْها. وقدْ ظَفِرْتُ بِغِرارَتَيْنِ[١١] مَمْلوءَتَيْنِ مَساميرَ، كَما ظَفِرْتُ بِعُدَّةِ النِّجارَةِ، وفيها مِسَنٌّ، واثْنَتا عَشْرَةَ قَدُومًا، وغَيْرُ ذلكَ. وجَمَعْتُ كلَّ ما وجَدْتُهُ — مِنَ الثِّيابِ وأَشْرِعَةُ السَّفينةِ والأَغْطِيَةِ — وعُدْتُ إِلى كُوخِيَ الصَّغيرَ وقدْ شَجَّعَنِي هذا النَّجاحُ، وأَكْسَبَنِي قُوَّةً ونَشاطًا عَظِيمَيْنِ. وكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَلْتَهِمَ بَعْضُ الْوُحُوشِ ما تَرَكْتُهُ مِنَ الزَّادِ،[١٢] ولكِنَّنِي اطْمَأْنَنْتُ — بَعْدَ عَوْدَتِي — وزالَتْ مَخاوِفِي؛ إِذْ لَمْ أَعْثُرْ لِهذِهِ الْوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ. عَلَى أَنَّنِي رَأَيتُ حَيَوانًا — أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْقِطِّ — جالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّناديقِ. وما رَآنِي حَتَّى فَرَّ مِنِّي، ثُمَّ وقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ، وظَلَّ يُنْعِمُ[١٣] نَظَرَهُ فِيَّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبْدُوَ عَلَى مَلامِحِهِ الْخَوْفُ. فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُقِيَّتِي، فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، ولَمْ يُحَاوِلِ الْفِرارَ. فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْعَةً مِنَ الْخُشْكَنانِ،[١٤] فاقْتَرَبَ مِنْها وشَمَّها وتَذَوَّقَها، ثُمَّ ابْتَلَعَها مِنْ فَوْرِهِ، وبَدا عَلَى مَلامِحِهِ السُّرُورُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَها، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا، لِأَنَّ زادِي قَلِيلٌ، ولَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أُسْرِفَ[١٥] فِي الْأَخْذِ مِنهُ.

ولَمَّا يَئِسَ الْقِطُّ مِنْ عَطائِي ذَهَبَ إِلى سَبِيلِهِ.

(٥) إِعْدادُ الْمَسْكَنِ

وَفَكَّرْتُ فِي إِعْدادِ مَسْكَنٍ يُؤَمِّنُنِي مِنَ الْوُحُوشِ، وَيَحْفَظُ أَمْتِعَتِي مِنَ التَّلَفِ، وَيقِيها غائِلَةَ الْأَمْطارِ وحَرارَةَ الشَّمْسِ. فَبَنَيْتُ خَيْمَةً مِنَ الشِّراعِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ، وثَبَّتُّها بِالْأَوْتادِ،[١٦]

[١٠] الأشياء الثمينة المحفوظة.

[١١] زكيبتين.

[١٢] الطعام الذي يتخذ للسفر.

[١٣] يدقق.

[١٤] البسكويت.

[١٥] أكثر.

[١٦] قطع من الخشب ونحوه مثبتة في الأرض.

ووَضَعْتُ فِي تِلْكَ الْخَيْمَةِ كلَّ ما أحْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ. ثُمَّ سَوَّرْتُ الْخَيْمَةَ[١٧] بِالصَّنادِيقِ والبَرامِيلِ، وسَدَدْتُ بابَها مِنَ الدَّاخِلِ بِأَلْواحٍ مِنَ الْخَشَبِ، ووَضَعْتُ خَلْفَها صُنْدُوقًا فارِغًا. ثُمَّ وضَعْتُ مُسَدَّسَيْنِ تَحْتَ وِسادَتِي، ونِمْتُ أَهْدَأَ ما أَكُونُ بالًا حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ.

(٦) ذَخائرُ السَّفِينَةِ

ولَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّنِي حَصَلْتُ عَلَى ما يَكْفِينِي، بَلْ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي. ولكِنَّ بَقاءَ السَّفِينَةِ أَطْمَعَنِي فِي الْحُصُولِ عَلَى كلِّ ذَخائِرِها، ما دُمْتُ قادِرًا عَلَى الذِّهابِ إِلَيْها، فَلَمْ يَهْدَأْ لِي بَالٌ، ولَمْ يَقِرِ لِي قَرارٌ. وعَقَدْتُ الْعَزْمِ عَلَى التَّزَوُّدِ[١٨] مِنْها كُلَّ يَوْمٍ. وقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْها — بَعْدَ ذلِكَ — سِتَّةَ أيَّامٍ مُتَعاقِبَةً،[١٩] وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَفْرَغْتُ كُلَّ ما فِيها مِنْ زادٍ وذَخائِرَ. ولكنَّنِي دُهِشْتُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ؛ إِذْ وَجَدْتُ بِرْمِيلًا كَبِيرًا مَمْلُوءًا خُشْكَنانًا.[٢٠] فَأَفْرَغْتُهُ، بَعْدَ أَنْ وضَعْتُهُ فِي قِطَعٍ مِنَ الْأَشْرِعَةِ، ثمَّ عُدْتُ إِلى خيْمَتِي مَسْرُورًا راضِيًا.

(٧) الزَّوْرَةُ الْأَخِيرَةُ

وذَهَبْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلى السَّفِينَةِ — كَعادَتِي — ولكنَّنِي شَعَرْتُ بِهُبُوبِ الرِّياحِ، فَلَمْ أُبالِ، وَلَمْ أَنْثَنِ[٢١] عَنْ عَزِيمَتِي. وقَدْ ظَفِرْتُ فِي هذِهِ الرِّحْلَةِ بِثَلاثِ مَواسٍ،[٢٢] وكانَتْ فِي غُرْفَةِ الرُّبَّانِ، كما ظَفِرْتُ بِمِقَصَّيْنِ صَغِيرَيْنِ وعِدَّةِ مَلاعِقَ، وما إِلَى ذلِكَ مِنَ الْأَدَواتِ النَّافِعَةِ. ثُمَّ لاحَتْ مِنِّي الْتِفاتَةٌ، فَرَأَيْتُ سِتَّةً وثَلاثِيْنَ جُنَيْهًا مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، فابْتَسَمْتُ — حِينَئِذٍ — ساخِرًا؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهذِهِ النُّقُودِ حاجَةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ. ولقَدْ هَمَمْتُ بِإِلْقائِها فِي

[١٧] جعلت لها سورًا.

[١٨] الأخذ.

[١٩] متوالية.

[٢٠] بسكويتًا.

[٢١] لم أرجع.

[٢٢] جمع موسى، وهي الآلة التي يُحلق بها.

الْبَحْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ عَنْ ذلِكَ، ووضَعْتُها فِي صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ. ورَأَيتُ السَّماءَ تَتَلَبَّدُ بِالْغُيُومِ؛ فَأَسْرَعْتُ بِالْعَوْدَةِ إِلى كُوخِي. وقَدْ لَقِيتُ عَناءً شَدِيدًا فِي مُغالَبَةِ الْأَمْواجِ، وَلكِنَّنِي وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سالِمًا بِحَمْدِ اللهِ.

(٨) غَرَقُ السَّفِينَةِ

وما عُدْتُ إِلَى خَيْمَتِي حَتَّى عَنُفَتِ الرِّياحُ، واشتَدَّ اضْطِرابُ الْأَمْواجِ، وظَلَّ الْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هائِجًا طُولَ اللَّيْلِ.

ولَمَّا أَقْبَلَ الصَّباحُ دُرْتُ بِأَلْحاظِي فِي عَرْضِ الْبَحْرِ؛ فَلَمْ أَجِدْ لِلسَّفِينَةِ أَثَرًا، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعاصِفَةَ أَغْرَقَتْها؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْها، لِأَنَّنِي لَمْ أَدَّخِرْ وُسْعًا فِي نَقْلِ كُلِّ ما أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْها فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ.

(٩) الْبَيْتُ الجَدِيدُ

لَمْ يَبْقَ عَلَيَّ — بَعْدَ ذلِكَ — إلا أَنْ أُفَكِّرَ فِي وَسيلَةٍ تَصُدُّ عَنِّي غائِلَةَ الْمُعْتَدِينَ، مِنْ بَنِي الْإِنْسانِ، أَوْ مِنَ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ. وظَلَلْتُ أُفَكِّرُ فِي بناءِ الْبَيْتِ الَّذِي أُشَيِّدُهُ، وَلَمْ أَدْرِ: هَلْ أَحْفِرُ كَهْفًا أَمْ أُقِيمُ خَيْمَةً؟ ثُمَّ قَرَّ رَأْيِي عَلَى أَنْ أَجْمَعَ بَيْنَهُما. ورَأَيْتُ الْمَكانَ الَّذِي حَلَلْتُهُ لا يَصْلُحُ لِإِقامَتِي إِقامَةً دائِمَةً؛ لِأَنَّهُ فِي أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ سَبِخَةٍ[٢٣] وَبقائِي فِيهِ مُضِرٌّ بِصِحَّتِي، وَهُوَ — إِلَى ذلِكَ — لَيْسَ قَرِيبًا مِنَ الْماءِ الْعَذْبِ. فَبَحَثْتُ عَنْ مَكانٍ آخَرَ أَكْثَرَ مُلاءَمَةً لِي. وَهَدانِي الْبَحْثُ إِلَى الْمَكانِ الَّذِي أَرَدْتُ؛ فَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى سَهْلٍ صَغِيرٍ فِي سَفْحِ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ صَخْرِيٍّ، وبِجانِبِهِ ماءٌ عَذْبٌ، وهُوَ مُشْرِفٌ عَلَى الْبَحْرِ. وكانَ فِي أَعْلَى ذلِكَ التَّلِّ صَخْرَةٌ ناتِئَةٌ[٢٤] تَقِينِي وَهَجَ الشَّمْسِ، وَتَحْمِينِي مِنِ اعْتِداءِ الْمُغِيرِينَ، مِنْ إِنْسٍ وحَيَوانٍ. وكانَتْ تِلْكَ الصَّخْرَةُ مَحْفُورَةً تُشْبِهُ الْكَهْفَ؛ فَبَنَيْتُ خَيْمَتِي أَمامَها، وَثَبَّتُّ أَوْتادَها؛ وشَعَرْتُ أَنَّنِي أَصْبَحْتُ بِمَأْمَنٍ مِنْ كُلِّ اعْتِداءٍ. ولَمْ أَجْعَلْ لِبَيْتِي بابًا أَدْخُلُهُ؛ بَلْ سُلَّمًا أَتَسَلَّقُهُ. فَإِذا دَخَلْتُ

---

[٢٣] ذات نز وملح.

[٢٤] مرتفعة.

الْبَيْتَ رَفَعْتُ السُّلَّمَ إِلى داخِلِهِ، ونِمْتُ — طُولَ لَيْلِي — ناعِمَ الْبالِ، مُطْمَئِنًّا، قَرِيرَ الْعَيْنِ. ثُمَّ نَقَلْتُ فِي هذا الْحِصْنِ كلَّ ما لَدَيَّ مِنْ مَتاعٍ وَزادٍ وذَخائِرَ. ورَفَعْتُ — فِي أَعْلَى الْمَسْكَنِ — سَقْفًا مُؤَلَّفًا منْ شِراعَيْنِ: أَحَدُهُما فَوْقَ الْآخَرِ، وطَلَيْتُهُما بِالْقارِ،[25] ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلى حَفْرِ مَكانٍ فِي تِلْكَ الصَّخْرَةِ لِيَكُونَ مَخْزَنًا صَغِيرًا فِي مَنْزِلِي. وَظَلِلْتُ جادًّا فِي عَمَلِي.

وَإِنِّي لَكَذلِكَ إِذْ بَرَقَ الْبَرْقُ ورَعَدَ الرَّعْدُ؛ فاشْتَدَّ جَزَعِي، وخَشِيتُ أَنْ يَشْتَعِلَ الْبارُودُ، فَيُدَمِّرَ كلَّ شَيْءٍ فِي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ.

وَثَمَّ[26] وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّها إِلى تَأْمِينِي[27] مِن هذا الْخَطَرِ؛ فَصَنَعْتُ أَكْياسًا كَثِيرَةً، ووَضَعْتُ فِيها الْبارودَ، وفَرَّقْتُها فِي أَنْحاءٍ مُتَباعِدَةٍ؛ حَتَّى إِذا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي أَحَدِها لَمْ تَتَّصِلْ بِغَيْرِهِ.

وبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَمِنْتُ أَنْ يَشْتَعِلَ كلُّ ما عِنْدِي مِنَ الْبارُودِ مَرَّةً واحِدَةً. وقَدْ أَنْجَزْتُ هذا الْعَمَلَ فِي خِلالِ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا مُتَوالِيَةٍ، ووَضَعْتُ الْبارُودَ فِي مِائَةِ غِرارَةٍ[28] أَخْفَيْتُها فِي ثُقُوبِ الصَّخْرِ، لآمَنَ عَلَيْها الرُّطُوبَةَ. وكانتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبارُودِ لا يَقِلُّ وَزْنُهَا عَنْ مِائَةٍ وأَرْبَعِينَ رَطْلًا. وقَدِ اشْتَدَّ حِرْصِي عَلَيْها، ولَمْ يَرْتَحْ بالِي إِلا بَعْدَ أَنْ وَثِقْتُ من سلامَتِها، وذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْها مِنَ التَّلَفِ.

---

[25] الزفت.

[26] هناك.

[27] حفظي.

[28] زكيبة.



الفصل الخامس

الزلزال

(١) جِداءُ الْجَزِيرَةِ

لَمْ أَكُفَّ عَنِ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إلا فِي فَتَراتٍ قَلِيلَةٍ، كُنْتُ أَخْرُجُ — فِي أَثْنائِها — مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، لأُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي مِنْ عَناءِ الْعَمَلِ، أَوْ لِأَصْطادَ بَعْضَ الْحَيَوانِ لِغِذائِي، أَوْ لِأَرْتادَ أَنْحاءَ الْجَزِيرَةِ الْمَجْهُولَةِ.

وَقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِي — فِي أَوَّلِ يَوْمٍ — ما بالْجَزِيرَةِ مِنْ جِدْيانٍ، وابْتَهَجْتُ حِينَ رأَيْتُها. وَلكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ؛ لِأَنَّنِي رَأَيْتُها مُتَوَحِّشةً ماكِرَةً سَرِيعَةَ الْعَدْوِ، لا أكادُ أَقْتَرِبُ مِنْها حَتَّى تَفِرَّ هارِبَةً. وَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَصْطادَ جَدْيًا مِنْ هذِهِ الْجِداءِ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ؛ لِسُرْعَتِها وَخِفَّتِها. وَلكِنَّ الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي على أمْرِي، وَظَلِلْتُ أُراقِبُ حَرَكاتِها فِي رَوْحتِها وَجَيْئاتِها؛ فَرَأَيْتُها تَفْزَعُ مِنِّي هارِبَةً، إذا أَقْبَلْتُ عَلَيْها مِنَ الْوادِي وَكانتْ فَوْقَ الصُّخُورِ. فَإِذا كُنْتُ أَنا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكانتْ هِيَ فِي الْوادِي تَرْعَى، لَمْ تَتَحَرَّكْ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ بَصَرَها مُنْصَرِفٌ إلى أَسْفَلَ، فَهِيَ لا تَرْفَعُهُ إِلى فَوْق؛ وَثَمَّ لا تَرَى ما فَوْقَها. وَرَأَيتُ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُنِي مِن اقْتِناصِها[١] بِسُهُولَةٍ هِيَ أَنْ أُشْرِفَ عَلَيْها مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ، وَأُصَوِّبَ رَصاصِي إِلَيْها. وَقَدْ نَجَحَتْ هذِهِ الْحِيلَةُ، وَأَصابَتْ أَوَّلُ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُقِيَّتِي ماعِزًا فَقَتَلَتْها. وكانَ مَعَها جَدْيٌ صَغِيرٌ؛ فَحَمَلْتُها عَلَى كَتِفِي وَتَبِعَنِي صَغِيرُها حَتَّى وَصَلْتُ إلى

[١] صيدها.



مَسْكَنِي. وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي مُلاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِي فَلَمْ أُفْلِحْ. وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ ما قَدَّمْتُهُ لَهُ مِن الطَّعامِ؛ فاضْطُرِرْتُ إِلَىَ ذَبَحَهِ وأَكْلِه.

(٢) مُذَكِّراتٌ يَوْمِيَّةٌ

وهكذا اسْتَطعْتُ أَنْ أُنَظِّمَ حَياتِي — مُنْذُ وَطِئَتْ[٢] قَدَمايَ تِلْكَ الْجَزِيرَةَ النَّائِيَةَ الْقَفْرَ[٣] — لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ الْمُتَمِّمِ لِلثَّلاثِينَ مِنْ «سِبْتَمْبِرَ». وكانَ الْوَقْتُ خَرِيفًا، وحَرارَةُ الشَّمْسِ مُحْتَمَلَةً.

وَكانتِ الْجَزِيرَةُ الَّتِي حَلَلْتُها واقِعةً عَلَى الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ شَمالِ خَطِّ الِاسْتِواءِ تَقْرِيبًا.

وما مَرَّ عَلَيَّ عَشَرَةُ أَيَّامٍ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَنْسَى تَوارِيخَ الْأَيَّامِ.

ولَمْ يَكُنْ عِنْدِي كُرَّاسَةٌ ولا وَرَقٌ ولا مِدادٌ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُدَوِّنُ لِلْأَيَّامِ تارِيخَها. وبَعْدَ افْتِكارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شاطِئِ الْبحْرِ جِذْعًا مُرَبَّعًا مِنَ الْخَشَبِ، وحَفَرْتُ فيهِ ما يأْتِي: «حَلَلْتُ هذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبِرَ سنةَ ١٦٥٨م.»

ثمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَن أَحْفِرَ خَطًّا صَغيرًا فِي كُلِّ يَوْمٍ. فَإِذا انْتَهَى الْأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجًا. فَإِذا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرَبَّعًا صَغيرًا. وقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعَرُّفِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ والشَّهْرِ والسَّنَةِ، وأَمِنْتُ الْخَطَأَ والنِّسْيانَ.

(٣) الْأَصْدِقاءُ الْأَوْفِياءُ

فاتَنِي أَنْ أَذْكُرَ لِلْقارِئِ أَنَّ السَّفِينَةَ — الَّتِي غَرِقَتْ — كانَ بِها قِطَّانِ وكَلْبٌ. وقَدْ كَتَبَ عَليْها الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُها مُمْتَزِجَةً بِقِصَّتِي؛ فَقَدْ أَحْضَرْتُ الْقِطَّيْنِ مَعِي، وقَفَزَ الْكَلْبُ منَ السَّفِينَةِ إِلى الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلى الشَّاطِئِ سِباحَةً، ولَحِقَ بي فِي الْيَوْمِ التَّالِي.

وقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ يَخْدُمُنِي عِدَّةَ سَنَواتٍ.

---

[٢] داست.

[٣] الخالية.



وكان دَقِيقَ الْمُلاحَظَةِ، حَادَّ الذَّكاءِ، أَشْبَهَ بِالْخادِمِ الذَّكِيِّ الْحاذِقِ.[٤] وكانَ — فِي الْحَقِيقَةِ — خَيْرَ صَديقٍ وخادِمٍ لِي. وقَدْ أُعْجِبْت بذَكائِهِ وفِطْنَتِهِ ودِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ:

[٤] الماهر.

فِي كُلِّ شَيْءٍ يُشْبِهُ الْـ   إِنْسانَ إِلَّا فِي الْكَلامْ

(٤) أَثاثُ الْبَيْتِ

ذَكَرْتُ لِلْقارِئِ أَنَّنِي نَقَلْتُ ذَخائِرِي وَزادِي إِلى بَيْتِيَ الْجَدِيدِ. وَقَدْ وضَعْتُها — أَوَّلَ الْأَمْرِ — عَلى غَيْرِ تَرْتِيبٍ؛ فَشَغَلَتْ مِنْ بَيْتِي فَراغًا كَبِيرًا، حَتَّى صَعُبَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ فيه مُتَّسَعًا لِلْحَرَكَةِ، فَعَمَدْتُ إِلى حَفْرِ الْمَغارَةِ لِتَوْسِيعِها. وقَدْ والَيْتُ الْعَمَلَ — فِي ذلكَ — أَيَّامًا حَتَّى وُفِّقْتُ إِلى غايَتِي. ثمَّ عَنَّ[٥] لِي أَنْ أَصْنَعَ أَهَمَّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أثاثِ الدَّار؛ فبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِيٍّ ومائِدَةٍ. وقدْ أَكْسَبَنِيَ الْعَمَلُ الْمُتَواصِلُ مَرانَةً نادِرَةً سَهَّلَتْ عَلَيَّ صُنْعَ كُلِّ ما يُعْوِزُنِي مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ.

وقَدِ اسْتَطعْتُ أَنْ أَصْنَعَ كَثِيرًا مِنَ الْأَثاثِ، دُونَ أَنْ أَسْتَعِينَ عَلى ذلِكَ بِغَيْرِ قَدُومٍ وَمِسْحَجٍ.[٦] فإِذا عَنَّ لِي أَنْ أَصْنَعَ لَوْحًا، قَطَعْتُ الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ، وطَرَحْتُ جِذْعَها عَلى الْأَرْضِ، ثمَّ هَذَّبْتُهُ مِنْ جانِبَيْهِ حَتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إِلى الْحَدِّ الَّذِي أُرِيدُ. فإِذا تَمَّ لِي ذلكَ صَقَلْتُهُ[٧] بِمِسْحَجِي.

وكانَ الْقَدُومُ والْمِسْحاجُ خَيْرَ مِعْوانٍ[٨] لِي عَلى إِنْجازِ كَثِيرٍ مِنْ أثاثِ الْبَيْتِ. ولَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَصْنَعَ أَكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ واحِدٍ مِنْ كلِّ شَجَرَةٍ كامِلَةٍ. عَلى أَنَّنِي لَجَأْتُ إِلَى الصَّبْرِ، ولَمْ يَكُنْ لِي مَنْدُوحَةٌ[٩] عَنْهُ. وقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْسِيٍّ وَمائِدَةٍ، ثمَّ صَنَعْتُ أَلْواحًا كثيرَةً، ثمَّ ثَبَّتُّ فِي الصَّخْرِ مَسامِيرَ لَوْلَبِيَّةً،[١٠] لِأُعَلِّقَ عليْها بَنادِقِي وَثِيابِي. وبَذَلْتُ جُهْدِي فِي إِنْجازِ كلِّ ما أَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ.

---

[٥] خطر.

[٦] آلة يصقل بها الخشب.

[٧] أنعمته.

[٨] مساعد.

[٩] بُدٌّ وسعة.

[١٠] مُلَوَّاة.

(٥) شَحْمُ الْجِداءِ

وكانَ يُعْوِزُنِي — وَما أَكْثرَ ما كانَ يُعْوِزُنِي حِينَئِذٍ — الشَّمْعُ. وكانَ فِقْدانُهُ يَضْطَرُّنِي إِلَى مُلازَمَةِ فِراشِي كلَّما أَقْبَلَ اللَّيْلُ.

وقَدْ فَكَّرْتُ فِي ذلِكَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إلى حَلِّ هذهِ الْمُشْكِلَةِ؛ فَحَرَصْتُ عَلَى شَحْمِ الْجِداءِ الَّتِي كنْتُ أذْبَحُها، ثمَّ جَفَّفْتُهُ فِي أَشعَّةَ الشَّمْسِ. ووَضَعتُ فِي وَسَطِ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّحْمِ فَتِيلًا أخْرَجْتُهُ مِنَ الْحِبالِ الَّتِي عِنْدِي؛ حَتَّى إذا تَمَّ صُنْعُ الشَّمْعِ ظَفِرْتُ بِالضَّوْءِ لَيْلًا، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ أَقْضي لَيالِيَّ فِي ظَلامٍ حالِكٍ.

(٦) سَنابِلُ الشَّعِيرِ

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ كُنْتُ دائِبًا[11] على الْعَمَلِ؛ فاسْتَرْعَى انْتِباهِي كِيسُ الْحُبُوبِ الَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِي مِنَ السَّفِينَةِ الْمُحَطَّمةِ، فَرَأَيْتُ الْفَأْرَةَ قَدِ التَهَمَتْهُ حَتَّى لَمْ تَكَدْ تُبْقِي منهُ إِلا الْقُشُورَ. فَأَفْرَغْتُ الْكِيسَ مِنها عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ كَهْفِي، لِأَنْتَفِعَ بِالْكِيسِ فِي قَضاءِ مَآرِبَ[12] أُخَرَ. وبعْدَ قَليلٍ هَطَلَتِ الْأَمْطارُ، وَرَوَّتِ الْأَرْضَ، ثمَّ نَسِيتُ كُلَّ ما حَدَثَ بَعْدَ ذلكَ.

وما مَرَّ عَلَيَّ شَهْرٌ واحدٌ تَقْرِيبًا حَتَّى أَدْهَشَنِي ما رَأَيْتُهُ — عِنْدَ سَفْحِ الصَّخْرَةِ — مِنَ السُّوقِ النَّامِيَةِ فِي الْأَرْضِ.

وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُها — أَوَّلَ الْأَمْرِ — نَباتاتٍ مَجْهولَةً. ثُمَّ ظَهَرَ لِي خَطَأُ هذا الظَّنِّ — بَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ — حينَ رَأيتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعِيرِ الْأَخْضَرِ.

وَقَدِ اشْتَدَّتْ دَهْشَتِي — حِينَئِذٍ — ولَمْ أُقَصِّرْ فِي تَعَهُّدِها بِالْعِنايَةِ، وحَصْدِها فِي مَوْسِمِ الْحَصادِ، وهُوَ آخِرُ شَهْرِ «يُنْيَةَ».

وقَدْ جَنَيْتُها بِعِنايَةٍ نادِرَةٍ؛ فَلَمْ أُهْمِلْ مِنْها حَبَّةً واحِدَةً، ثمَّ بَذَرْتُها — بَعْدَ ذلكَ — فِي مَوْسِمِ الْبَذْرِ. وَلاحَ لِي أَمَلٌ كَبيرٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ بَعْدَ زَمَنٍ قَليلٍ.

---

[11] مجتهدًا.

[12] إنجاز حاجات.



وَما مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعُ سَنَواتٍ حَتَّى أَصْبَحَ عِنْدِي — مِنَ الشَّعِيرِ — ما يَكْفِي لِغِذَائِي وزَرْعِ حَقْلِيَ الْجَديدِ.

(٧) زِلْزالُ الْجَزِيرَةِ

وَما أنْسَ لا أنْسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ «أَبْرِيلَ» عامَ سِتِّينَ وسِتِّمِائَةٍ وَأَلْفٍ: فَقدْ كانَ يَوْمًا هائِلَ النَّبَإِ، مُرَوِّعَ الْخَبَرِ، وقَدْ أَيْقَنْتُ فِي ذلك الْيَوْمِ أَنَّ آخِرَتِي دَنَتْ، وأَنَّ مَصْرَعِي وَشِيكٌ.[١٣] ورَأَيتُ كلَّ ما أتْمَمْتُهُ — مِنْ عَمَلٍ — يَكادُ يَنْهارُ[١٤] أَمامِي فِي لَحْظَةٍ واحدةٍ.

كُنْتُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مُنْهَمِكًا[١٥] فِي أَعْمالِي، داخِلَ خَيْمَتِي. وإِنِّي لَكَذلِكَ إِذْ وجَدْتُ الْأَرْضَ تَهْبِطُ وتَصْعَدُ. وشَعَرْتُ بِاضْطِرابِ الصُّخُورِ الَّتِي تَكْتَنِفُنِي[١٦] وسَمِعْتُ فَرْقَعةً وجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ، ولَمْ أَعْرِفْ مَصْدرَ هذهِ الْكَوارِثِ. وتَمَلَّكَنِي الذُّعْرُ، وخَشِيتُ أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا؛ فَصَعِدْتُ السُّلمَ، وخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِي مُسْرِعًا، وَأَنا لا أَكادُ أُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ؛ فَرَأَيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا، فَعَرَفتُ أَنَّهُ الزِّلْزالُ.

وقَدِ اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مُتَعاقِبَةً،[١٧] وكانَ بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْها ثَمَانِي دَقائِقَ.

وكانَتْ تِلْكَ الْهِزَّاتُ قَوِيَّةً عَنيفَةً إِلى حَدِّ أَنْ هَوَتْ إِحْدَى الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي، ولَمْ أَكُنْ أَبْعُدُ عَنْها أَكْثَرَ مِنْ مِتْرٍ ونِصْفِ مِتْرٍ، وَسَمِعْتُ لِسُقُوطِها صَوْتًا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالرَّعْدِ. وثَمَّةَ[١٨] عَقَدَ الْخَوْفُ لِسانِي، وكادَ يَجْمُدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ.

وكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ الْأَرْضَ هدَأَتْ، وسَكَنَ اضْطِرابُها بَعْدَ تِلْكَ الْهِزَّاتِ الثَّلاثِ؛ فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي قَليلًا، وَلكِنَّنِي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتِي؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ، وأَنا لا أَعْرِفُ كَيْفَ أَصْنَعُ.

---

[١٣] هلاكي مسرع إليَّ.
[١٤] يسقط.
[١٥] جادًّا.
[١٦] تحيط بي.
[١٧] متوالية.
[١٨] هناك.

(٨) بَعْدَ الزِّلْزالِ

واكْفَهَرَّتِ السَّماءُ[١٩] وَتَلَبَّدَتْ فَجْأَةً بِالْغُيُومِ الْقاتِمَةِ. وهَبَّتِ الرِّيحُ عاصِفَةً هَوْجاءَ، واصْطَخَبَ الْبَحْرُ، واصْطَفَقَتْ أَمْواجُهُ اصْطِفاقًا شَدِيدًا، وكانَتْ تَصِلُ فِي ارْتِفاعِها إلى مِثْلِ ارْتِفاعِ الْجِبالِ. وَظَلَّتِ الْعاصِفَةُ ثائِرَةً مُفْزِعَةً ثَلاثَ ساعاتٍ، ثُمَّ أَعْقَبَها السُّكُونُ، وَهَطَلَتِ الْأَمْطارُ الْغزيرَةُ؛ فَحَسِبْتُها سُيُولًا تَهمِي مِنَ السُّحُبِ الْمُتَكاثِفَةِ. وَظَلَّتِ السَّماءُ تُمْطِرُنا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي. وَكانَ شُغْلِي الشَّاغِلُ — حِينَئِذٍ — التَّفْكِيرَ فِي تَغْيِيرِ هذا الْمَنْزِلِ، بَعْدَ حُدُوثِ الزِّلْزالِ. فَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِي أَنْ أَطْمَئِنَّ إلى الْبَقاءِ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ أُدْفَنُ فِيهِ حَيًّا. وقُلْتُ لنَفْسِي: «ما دامَتِ الْجَزِيرَةُ عُرْضَةً لِأَخْطارِ الزِّلْزالِ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ[٢٠] أَنْ أَتَّخِذَ هذِهِ الْمَغارَةَ مَسْكَنًا لِي، وَما أَجْدرني أَنْ أَتَخَيَّرَ مَكانًا صالِحًا فِي الْعَراءِ،[٢١] لِأَبْنِيَ فِيهِ مَسْكَنِي، بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِياجٍ أَمِينٍ.»[٢٢]

وقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُغادَرَةِ هذا الْكَهْفِ الَّذِي لَمْ آلُ جُهْدًا[٢٣] فِي حَفْرِهِ وَإِصْلاحِهِ وَتَنْظيمِ أَمْتِعَتِي فِيهِ، حَتَّى أَصْبَحَ بَيْتًا وَحِصْنًا مَنِيعًا[٢٤] يَقِينِي غاراتِ الْأَعْداءِ.

(٩) أَثَرُ الزِّلْزالِ

وَفِي صَباحِ أَوَّلِ «مايُو» وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ، وَأُجِيلُ لِحاظِيَ فِي أَرْجَائِهِ.[٢٥] فَرَأَيْتُ بَقايا مُتَناثِرَةً مِنْ حُطامِ السَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْواحِها، قَذَفَها الْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ. فَصَبَرْتُ عَلَيْها حَتَّى

---

[١٩] اسودت.

[٢٠] الحكمة.

[٢١] الفضاء.

[٢٢] سور متين.

[٢٣] لم أبق قوة إلا بذلتها.

[٢٤] قويًّا.

[٢٥] أدير بصري في أنحائه.

يَنْحَسِرَ[٢٦] عَنْها الْماءُ، وَقْتَ الْجَزْرِ.[٢٧] وَقَد دَهِشْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ. وَعَلِمْتُ أَنَّ هذا مِنْ أَثَرِ الزِّلْزالِ الَّذِي حَطَّمَ السَّفِيْنَةَ تَحْطِيمًا، ثُمَّ قَذَفَتِ الْأَمْواجُ بِأَلْواحِها إِلى الشَّاطِئِ. وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهازِ هذِهِ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي بِبناءِ الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ. وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ مَا بَقِيَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلى قِطَعٍ، وَأَنا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حاجتى إِلى هذِهِ الْبَقايا الْمُحَطَّمَةِ. وَقَدْ وَاصَلْتُ الْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هذا الْعَزْمِ حَتَّى مُنْتَصَفِ شَهْرِ «يُنْيَةَ»، وَظَفِرْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْواحِ، كَما ظَفِرْتُ بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَتَي رَطْلٍ مِنَ الْحَدِيدِ. وَهكَذا أَصْبَحَ في مَقْدُورِي أَنْ أَبْنِيَ لي زَوْرَقًا كامِلَ الْمُعِدَّاتِ. وَصَنَعْتُ — بَعْدَ ذلك — شَبَكَةً أَصْطادُ بِها السَّمَكَ. وَكُنْتُ أُجَفِّفُ ما يَزِيدُ عَلَى حاجَتِي مِنْهُ في ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرارَتِها، ثُمَّ آكُلُهُ في أَوْقاتٍ أُخْرَى.

(١٠) بَيْن بَراثنِ الْحُمَّى

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ «يُنْيَةَ» رَأَيْتُ سُلَحْفاةً كَبِيرَةً تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ، وكانَتْ هذِهِ أَوَّلَ سُلَحْفَاةٍ أَراها في الْجَزِيرَةِ. عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ — فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ — أَسْرَابًا[٢٨] كَثِيرَةً مِنَ السَّلاحِفِ في النّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْها.

وَذَبَحْتُ تِلْكَ السُّلَحْفاةَ؛ فَرَأَيْتُ فِيها سِتِّين بَيْضَةً. وكانَ لَحْمُها — حِينَئِذٍ شَهِيًّا لَذِيذًا؛ حَتَّى خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعامٍ تَذَوَّقْتُهُ في حَياتِي.

وفِي الْيَوْمِ الثَّامِنَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ «يُنْيَةَ» هَطَلَتِ الْأَمْطارُ غَزيرَةً، وبَرَدَ الْجَوُّ فَجْأَةً، فَأَصابَتْنِي الْحُمَّى عَشَرَةَ أَيَّامٍ كامِلَةٍ. وكانت حَرارَتِي تَخْتَلِفُ بَيْن ارْتِفاعٍ وانْخِفاضٍ، وقَدِ اشْتَدَّ بِيَ الظَّمَأُ وأَعْجَزَنِي الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إِلى مَكانِ الْماءِ لِأُرْوِي ظَمَئِي.

[٢٦] يرتد.

[٢٧] ارتداد الماء.

[٢٨] جماعات.

وما تَماثَلْتُ،[٢٩] حتَّى انْصَرَفَ هَمِّي إلى مَلْءِ زُجاجَةٍ كَبِيرَةٍ ماءً، وَوَضَعْتُها عَلَى الْمائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سرِيرِي.

ولَقَدْ نَهِكَتِ الْحُمَّى قِوَايَ؛[٣٠] فَبَقِيتُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى وأنا عاجِزٌ عَنْ أداءِ أيِّ عَمَلٍ. فَقَضَيْتُ دَوْرَ النَّقَهِ[٣١] فِي رَاحَةٍ تَامَّةٍ، تَتَخَلَّلُها نُزُهاتٌ قَصِيرَةٌ، حتَّى اسْتَرْدَدْتُ صِحَّتي كامِلَةً في الْيَوْمِ الْخامِس عَشَرَ مِنْ «يُلْيَةَ».

(١١) ارْتِيادُ الْجَزِيرَةِ

ورَأَيْتُنِي جَدِيرًا أَنْ أرْتادَ الْجَزِيرَةِ، وأَتَعَرَّفَ كلَّ ما فِيها. فَذَهَبْتُ إلى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ — وهُوَ أَوَّلُ مَكانٍ حَلَلْتُهُ في هذهِ الْجَزِيْرَةِ — وسِرْتُ عَلَى شَاطِئِ الْغَدِيرِ الَّذِي يَصُبُّ فيهِ، وقَطَعْتُ نَحْوَ مِيلَيْنِ في أرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ. وقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْمُرُوجِ الْخُضر الْجَمِيلَةِ الْمُنْبَسِطَةِ الَّتِي يَخْتَرِقُها الْغَدِيرُ. ورَأَيْتُ في الْمُروجِ الْمُرْتَفِعَةِ كثيرًا مِن التَبْغِ الأَخْضَرِ نامِيًا عَلَى سُوقٍ مُرْتَفِعَةٍ، كما رَأَيتُ عِيدانَ قَصَبِ السُّكَّرِ عَلَى غَيْرِ ما يُرامُ، فقَدْ أُهْمِلَتْ ولمْ يَتَعَهَّدْها أَحَدٌ بِعِنايَتِهِ.

وفِي الْيَوْمِ التَّالِي — أَي في السَّادِسَ عشَرَ مِن ذلكَ الشَّهْرِ — سِرتُ في الطَّرِيقِ الَّتي قَطَعْتُها بِالْأَمْسِ، وتَوغَّلْتُ[٣٢] في الْمُرُوجِ، فَرأَيتُ وَراءَها كَثيرًا مِن أشْجارِ الْفاكِهَةِ وغيْرِها، ورَأَيتُ — مِنَ الشَّمَّامِ والْعِنَبِ النَّاضِجِ الشَّهِي — ما أدْهَشَني وَأَفْعمَ قَلْبي سُرُورًا، فَأَكَلتُ مِن الْفاكِهَةِ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ حتَّى لا تُسْلِمَنِي التُّخَمَةُ إلى الْمَرَضِ. ثُمَّ عَنَّ لي أَنْ أُجَفِّفَ الْعِنَبَ حَتى يُصْبِحَ زَبِيبًا. ومَضَى النَّهارُ كلُّهُ وأَنا جادٌّ في هذا الْعَملِ. ولَمْ أَشَأْ أَنْ أَعُودَ إلى مَسْكَنِي قَبْلَ أَنْ يُقْبِلَ اللَّيْلُ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ[٣٣] فَتَخَيَّرْتُ لِنَوْمِي شَجَرَةً كَثيفَةَ الأَغْصانِ، وَنِمتُ

[٢٩] دنوت من الشفاء.

[٣٠] أضعفتها.

[٣١] مدة استكمال الصحة.

[٣٢] قطعت مسافة بعيدة.

[٣٣] بعد المسافة.

بَيْنَ أَغْصانِها، كما نِمْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ حَلَلْتُ فِيها هذه الْجَزِيرَةَ. وَما زِلْتُ نائِمًا قَرِيرَ الْعَيْنِ[٣٤] هادِئَ الْبالِ حَتَّى أَقْبَلَ الصّباحُ، فاسْتَيْقَظْتُ، ثُمَّ واصَلْتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَمْيالٍ، حتَّى بَلَغْتُ غابةً مُزْدَهِرَةً، تَلُوحُ لِعَيْنِ مِن يَرَاها مِنْ بَعِيدٍ كأَنَّها حَدِيقَةٌ.

وقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِي ما رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَرِ الْبُرْتُقالِ واللَّيْمُونِ وَما إِلى ذلكَ مِنَ الْفاكِهَةِ النَّاضِجَةِ الشَّهِيَّةِ.

ورَأَيْتُ مِنْ أَصالَةِ الرَّأْيِ[٣٥] أَنْ أُعِدَّ مِنْ هذِه الْخَيْراتِ الْعَمِيمَةِ زادًا أَخْتَزِنُهُ لِفَصْلِ الشِّتاءِ الْقَرِيبِ، فَجَنَيْتُ كثيرًا مِنَ الْعِنَبِ، وعَلَّقْتُهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ، لِيَجِفَّ في الشَّمْسِ. وَأَخذْتُ مِنَ الْبُرْتُقالِ بِمِقْدارِ ما أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ. وَسِرْتُ في طَرِيقِي عائِدًا إِلى مَسْكَني، وَأَنا شَدِيدُ الإِعْجابِ بِجَمالِ هذا الْوادِي الْخَصِيبِ، وَاعْتدالِ جَوِّهِ، وَحُسْن مَوْقِعِهِ الأَمِينِ. وعَرَفْتُ أَنَّ الْمَكانَ — الَّذِي تَخَيَّرْتُهُ لِسُكْناي — هُوَ أَرْدَأُ بُقْعَةٍ في تلكَ الْجَزِيْرَةِ. وَلكِنَّنِي لَمْ أَشَأْ أَنْ أَبْرَحَ الْمَكانَ، لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ. وَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِي سَفِينَةٌ، أَوْ يَفِد عَلَي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنْقِذنِي مِنْ تِلْكَ الْعُزْلَةِ.

عَلَى أَنَّنِي — لِشِدَّةِ إِعْجابِي بِهذِهِ الْبُقْعَةِ الْجَمِيلَةِ — لَم أَشَأْ أَنْ أَبْتَعِد عَنْها، فَأَنْشَأْتُ فِيها عُشًّا آوِي إِلَيْهِ وَسَط فِناءٍ[٣٦] مُحَاطٍ بِسِياجٍ[٣٧] طَبِيعي مُزْدَوجٍ مِنَ الأَشْجارِ. وَكُنْتُ أُمْضِي في هذا الْحِصْنِ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا مُتَوالِيَةً، وَقَدْ صَنَعْتُ سُلَّمًا شَبِيهًا بِالسُّلَّمِ الَّذِي صَنَعْتُهُ في الْمَنْزِلِ الأَوَّلِ. وَهكَذا أَصْبَحَ لِي مَنْزِلانِ مُتَباعِدانِ، آوِي إِلَيْهِما في أَي وَقْتٍ أَشاءُ، وَظَلِلْتُ كذلِكَ إِلى أَوَّلِ شَهرِ «أُغُسْطُسَ».

---

[٣٤] مسرورًا.

[٣٥] جودته.

[٣٦] مكان فضاء واسع.

[٣٧] سور.



(١٢) فَصْلُ الْأَمْطارِ

وَفِي اليَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ «أُغُسْطُس» بَدأَ الْمَطَرُ يَنْهَمِرُ بِشِدَّةٍ إِلى أن حَلَّ مُنْتَصَفُ «أُكْتُوْبَرَ» فَبَدَأَتْ تَخِفُّ وَطْأَةُ الْمَطَرِ. وَكُنْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — قَدْ نَقَلْتُ إِلى مَسْكَنِي الْأَوَّلِ كلَّ ما جَفَّفْتُهُ مِنَ الْعِنَبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فَصْلِ الْأَمْطارِ. فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهِمارُ الْمَطرِ وَتَعَذَّرَ عَلَيَّ الْخُرُوجُ، وَجَدْتُ ما يَكْفِينِي مِنَ الزَّادِ. وكانَ الْمَطَرُ يَضْطَرُّنِي فِي بَعْضِ الْأَحْيانِ، إِلَى الِانْزِواءِ في مَغارَتِي عِدَّةَ أَيَّامٍ.

وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زادِي يُوشِكُ أَنْ يَنْتهِيَ؛ فاضْطُرِرْتُ إلى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتي مَرَّتَيْنِ. وَقَدِ اصْطَدْتُ جَدْيًا وَسُلَحْفاةً كَبِيرَةً، وكانَ لَحْمُهُما شَهِيًّا.

وكانَ فَطُورِي عُنْقُودًا مِنَ الْعِنَبِ، وَغَدائِي شِوَاءَةً مِنْ جَدْيٍ أَوْ سُلَحْفاةٍ، وَعَشَائِي بَيْضَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا.

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِينَ مِنْ «سِبْتَمْبرَ»، انْتابَتْنِي ذِكْرَياتٌ مُؤْلِمَةٌ. وقَدْ ساوَرَتْنِي[38] حِيْنَ مَرَّ بِخاطِرِي أَنَّنِي حَلَلْتُ هذِهِ الْجَزِيْرَةَ فِي مِثْلِ هذا الْيَوْمِ مِنَ الْعامِ الْماضِي، وقَدْ مَرَّ عَلَيَّ عامٌ بِأَكْمَلِهِ فِي هذا الْمَنْفَى. ولَقَدْ كُنْتُ شَديدَ الْيَقْظَةِ في مُرَاقَبَةِ الْفُصُولِ وَحُسْبانِ أَيَّامِ السَّنَةِ؛ حتَّى لا أُفاجَأَ بِالْأَمْطارِ. وقدْ أَكْسَبَتْنِي الْمَرانَةُ خِبْرَةً نادِرَةً بِالزِّراعَةِ، وَنَجَحَتْ أَعْمالي نَجاحًا باهِرًا.

(١٣) الْبَبَّغاءُ والْجَدْيِ

وكُنْتُ دَائِبًا عَلَى الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ. ولَم أُقَصِّرْ في تَوفِيرِ الزَّادِ[39] عِنْدِي قَبْلَ حُلُولِ الْأَمْطارِ؛ حَتَّى لا يُزْعِجَني نَقْصُ الزَّادِ إذا حَبَسَنِيَ الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ.

ورَأَيْتُني في حاجَةٍ إِلَى سِلالٍ أَضَعُ فِيها الْفاكِهَةَ والطَّعامَ. وقَدْ وُفِّقْتُ إلى صُنْعِها بَعْدَ عَناءٍ طَوِيلٍ. وكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّجْوالِ في تِلْكَ الْجَزيرَةِ. وقَدِ اسْتَرْعَى بَصَرِي — ذاتَ يَوْمٍ — أَرْضٌ فَسِيحَةٌ، وكانَ الْيَوْمُ صَحْوًا. وَقَدْ رَأَيْتُها مُرْتَفِعَةً، تَمْتَدُّ مِنَ الْغَرْبِ إلى الْجَنُوبِ الْغَرْبِيِّ. وهِيَ تَبْعُدُ عَنْ جَزِيرَتِي نَحْوَ خَمْسَةَ عَشَرَ مِيلًا، ولَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْها. وقَدْ هَدَانِيَ التَّفْكِيرُ الطَّوِيلُ إلى أَنَّ هذِهِ الْأَرْضَ الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إلى بِلادِ الْبَرازِيلِ. وَشَهِدْتُ — فِي أَثْناءِ تَجْوالي فِي تِلْكَ السُّهُولِ الْخُضْرِ الْمُزْدَهِرَةِ الْجَمِيلَةِ، ذاتِ الْأَشْجارِ الْباسِقَةِ[40] الكَثِيفَةِ[41] — جَمْهَرَةً مِنَ البَبَّغاواتِ.

[38] خطرت لي.

[39] جمعه.

[40] المرتفعة.

[41] الغليظة.

وقَدْ وُفِّقتُ إلى اقْتِناصِ بَبَّغاءَ صَغِيرَةٍ، ضَرَبْتُها بِعَصايَ، ثمَّ أَدْفَأْتُها بَيْنَ ثِيابي، حَتَّى عادَتْ إلى صَوابِها. وعُدْتُ بِها إلى مَسْكني، فَرَأَيْتُ كَلْبِي قدِ اصْطادَ جَدْيًا صَغِيرًا؛ فَأَسْرَعْتُ لِإنقاذِ الْجَدْي مِنْ بَيْنِ مَخالِبِهِ.



وقدْ عُنِيتُ بِتَرْبِيَةِ البَبَّغاءِ والْجَدْيِ وتَأْنِيسِهما.[٤٢] فَرَبَطْتُ الْجَدْيَ إِلى وَتِدٍ، وصَنَعْتُ لِلْبَبَّغَاءِ قَفَصًا. ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِما زَمَنٌ قَليلٌ، حَتَّى أَنِسَا بِي وارْتاحا إِلى صُحْبَتِي. وكانَ الْجَدْيُ يَتْبَعُنِي حَيْثُما سِرْتُ، ولا يَكادُ يُطِيقُ فِراقِي.

وهكَذَا سُعِدْتُ — فِي هذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — بِصُحْبَةِ هذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ، كما سُعِدْتُ بِصُحْبَةِ كَلْبِي وقِطَّتِي مِنْ قَبْلُ.

[٤٢] جعلهما يأنسان بي ولا يهربان مني.

الفصل السادس

زمَنُ الْعُزلة

(١) أعْداءُ الزِّراعَةِ

حَلَّ الْيومُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلاثِين مِنْ «سِبْتَمْبرَ»، وهُوَ الذِّكْرَى الثَّانِيَةُ لِلْيَوْمِ الْمَشْئُومِ الَّذِي حَلَلْتُ فيهِ هذهِ الْجَزِيرَةَ الْمُوحِشَةَ النَّائِيَةَ، حَيْثُ كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَ الْعالَمَ وَأَسْتَسْلِمَ لِلْعُزْلَةِ. عَلَى أَنَّنِي وجَدْتُ في الْعَمَلِ راحَةً عَظِيمَةً، وَظَفِرْتُ — بِجَدِّي ودُءُوبِي ومُثابَرتِي[1] — بِنَتائِجَ باهِرَةٍ. فَجَنَيْتُ في آخِرِ الْخَرِيفِ مَحْصُولًا وافِرًا مِنَ الْحُبُوبِ. وَلكِنَّ فَرَحي بهِ لَمْ يَدُمْ طَويلًا؛ فَقَدْ نَغَّصَهُ عَلَيَّ عَبَثُ الْجِداءِ بهِ. وكُنْتُ أرَى بَعْضَ حَيَوانِ الْجَزِيرةِ — وهُوَ أَشْبَهُ شَيءٍ بِالْأَرْنَبِ الْجَبَلِي — يَعيثُ بِزَرْعِي فَسادًا. وقَدِ اسْتَمْرَأَ[2] الْقَمْحَ — وَهُوَ عَلَى سُوقِهِ — وأغْرَتْهُ لَذَّتُهُ بِإفْسادِ ما زَرَعْتُهُ منْهُ. فَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِياجٍ مِنَ الْأَعْشابِ الْمُرْتَفِعَةِ. وقَدْ جَهَدَني ذلكَ ثَلاثَةَ أَسابِيعَ. ولَمْ آلُ جُهْدًا في مُطارَدَةِ هذِهِ الْأَعْداءِ الْخَبِيثَةِ نَهارًا، فَإِذا جاءَ اللَّيلُ رَبَطْتُ الْكَلْبَ إلى حَبْلٍ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ في بابِ الْحَقْلِ، فَلا يَفْتَأُ يَنْبَحُ طُولَ اللَّيْلِ حتَّى يُزْعِجَها؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَجَرَتِ الْبُقْعَةَ الَّتي كُنْتُ فِيها، ولَمْ تَعُدْ تَدْنُو مِنْها بَعْدَ ذلكَ. واسْتَرَحْتُ مِن عَبَثِ هذهِ الْأَعْداءِ،[3] حتَّى حانَ وَقْتُ الْحَصادِ، فَظَهَرَ لي أَعْداءٌ جُدُدٌ؛ إذ أَقْبَلَتِ الطُّيُورُ على سَنابِلِ الشَّعِيرِ تَلْتَهِمُها، واسْتَمْرَأَتْ هذا الطَّعامَ الشَّهِيَّ.

---

[1] صبري ومواظبتي.

[2] استطاب.

[3] ما فعلته من الأذية.

على أَنَّنِي لَمْ أيْئَسْ مِنَ النَّجاحِ في مُطاردَتِها، فَظَلِلْتُ أَحْرُسُ حَقْلِي لَيْلَ نَهارَ، وَأَصْطادُ بِبُنْدُقِيَّتِي كُلَّ طائِرٍ يَدْنُو مِنْ حَقْلِي؛ حَتَّى ذُعِرَتِ الطُّيورُ وَتَمَلَّكَها الرُّعبُ، فهَجرَتِ الْحَقْلَ وَما يَكْتَنِفُهُ،[٤] ولَمْ تَجْرُؤْ على الدُّنُوِّ مِنْ هذهِ الْبُقْعَةِ. وَهكَذا تَمَّ لِي الظَّفَرُ، وَارْتاحَ بالِي، وَنَضِجَ الزَّرْعُ في الْأَيَّامِ الْأَخيرَةِ مِنْ «دِيسَمْبِرَ».

(٢) أَدواتُ الزَّارِعِ

وقَدِ اشْتَدَّتْ حَيْرَتي وارْتِباكِي حِينَ هَمَمْتُ بِجَنْيِ هذا المَحْصُولِ وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْأَدَواتِ ما يُساعِدُنِي عَلَى ذلكَ. وعَنَّ لِي أَنْ أَصْنَعَ مِنْجَلًا، وَهُوَ آلةٌ مِن الْحَديدِ مُنْحَنِيَةٌ يُقْطَعُ بِها الزَّرْعُ.

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَغُصْنِ شَجَرَةٍ. وَقَطَعْتُ السَّنابِل، ثُمَّ فَرَكْتُها بِيَدَي، وَعَزَمْتُ عَلَى بَذْرِها جَمِيعًا في الْمَوْسِمِ الْقابِلِ. وَهُنا تَمَثَّلَ لِي مِقْدَارُ ما يُعانِيهِ الْإِنْسانُ إذا حاوَلَ — بِمُفْرَدِه — أَنْ يَظْفَرَ بِرَغِيفٍ واحدٍ مِنَ الْخُبْزِ؛ فَقَدْ كُنْتُ في حاجَةٍ إِلى مِحْراثٍ وَفَأْسٍ وَما إلى ذلكَ مِنْ أدواتِ الزِّراعةِ، فَإِذا تَمَّ الْحَصادُ اشْتَدَّتْ حاجَتِي إِلى طاحُونَةٍ وَمُنْخُلٍ وَفُرْنٍ وَما إِلى ذلِك مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ. وَلكِنَّ الْجِدَّ وَالْمُثابَرَةَ كَفِيلانِ بِالتَّغَلُّبِ عَلَى كلِّ عَقَبَةٍ. وَقَدْ تَمَّ لِي كلُّ ما أَرَدْتُ بِفَضْلِ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْعَمَلِ، لِأَنَّنِي كُنْتُ لا أُضِيعُ وَقْتِي عَبَثًا؛ فَإِذا هَطَلَتِ الْأَمْطارُ لَزِمْتُ بَيْتِي، وَأَقْبَلْتُ عَلَى بَبَّغائِي أُعَلِّمُها النُّطْقَ، حَتّى وَصَلْتُ إِلى نتائِجَ باهِرَةٍ.

(٣) صِناعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كانَتِ الْحاجَةُ تَفْتُقُ الْحِيلَةَ،[٥] اضْطُرِرْتُ إِلى مُزاوَلَةِ صِناعَةِ الْفَخَّارِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِها عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ نَجَحْتُ في ذلِكَ — بَعْدَ مَرانَةٍ طَوِيلَةٍ، وَتجَارِبَ كَثِيرَةٍ — فَصَنَعْتُ

[٤] ما يحيط به.

[٥] الضرورة تبعث على ابتكار الحيلة.



كَثِيرًا مِنَ الْجِرارِ[٦] والْأَوانِي والْقِصاعِ[٧] والصِّحافِ.[٨] وَما زِلْتُ أَرْتَقِي فِي هذِهِ الصِّناعةِ حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا جَدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ.

[٦] جمع جرة .

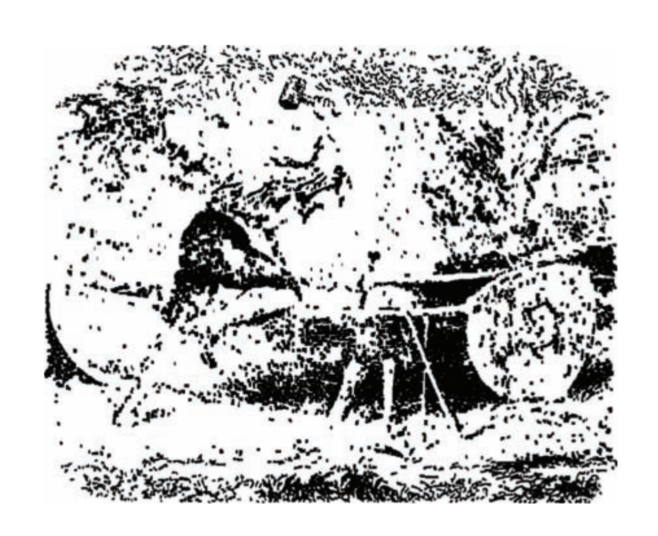
[٧] جمع قصعة.

[٨] جمع صحفة، وهي الطبق.

(٤) الزَّوْرقُ الْكَبِيرُ

عَلَى أَنَّ هذِهِ الْأَعْمالَ الكثِيرَةَ الْمُرْهِقَةَ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِيَ الشَّديدَةَ فِي ارْتِيادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ الَّتي رَأَيْتُها — مِنْ قَبْلُ — تُجاهَ الْجَزِيرَةِ، فَقَدْ كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَجِدَ فِيها وَسَيلةً لِلْعَوْدَةِ إلى «لَندَنَ».

وذَكَرْتُ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ الَّذِي انْقَلَبَ بِرِفاقِي، فرَأَيْتُهُ لا يَزالُ كما هُوَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ مَقْلُوبًا، وقدْ غاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِي رِمالِ الشَّاطِئِ، وحاوَلْتُ أَنْ أَرْفَعَهُ مِنْ مَكانِهِ، فَذَهَبَتْ كلُّ جُهُودِي عَبَثًا.



فَأَقْبَلْتُ عَلَى جُذُوعِ الْأَشْجارِ، وبَذَلْتُ كُلَّ ما فِي وُسْعِي زَمَنًا طَوِيلًا، حتى صَنَعْتُ زَوْرَقًا كَبِيرًا يَسَعُ سِتَّةً وعِشْرِينَ راكِبًا.

ولكِنَّني عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إلى الْبَحْرِ، وأَعْيَتْنِي الْحِيَلُ فِي ذلِكَ، واسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أُزَحْزِحَهُ عَنْ مَكانِهِ، كما اسْتَحالَ عَلَيَّ أَنْ أُزَحْزِحَ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ.

(٥) الزَّوْرَقُ الْجَديدُ



وانْقَضَى الْعامُ الرَّابِعُ، فَانْتَظَمَتْ أُمُورِي واسْتَقامَتْ. وقَدْ صَنَعْتُ — فَيما صَنَعْتُ — قَلَنْسُوَةً[٩] كَبِيرَةً مِنْ فِراءِ الْجِداءِ الَّتِي تَصَيَّدتُها، كَما صَنَعْتُ مِنْها جِلْبابِي وسِرْوالِي

[٩] غطاء رأس.

وَبَعْضَ الثِّيابِ، لِتَقِيَنِي غائِلَةَ الْبَرْدِ في الشِّتاءِ. وصَنَعْتُ مِظَلَّةً لِتَقِيَنِي غَائِلَةَ الْحَرِّ في الصَّيْفِ — فَقدْ كانتِ الجَزِيرَةُ واقِعَةً بِالْقُرْبِ مِنْ خَطِّ الاِسْتِواءِ، وَكَانَ قَيْظُها[١٠] لِذلكَ لا يُحْتَمَلُ — فَسَهَّلَتْ عَلَيَّ السَّيْرَ نَهَارًا مِنْ غَيْرِ عَناءٍ، وَآمَنَتْنِي مِنَ الْمَطَرِ والشَّمْسِ. وَكانَ شُغلِي الشَّاغِلُ أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا أَصْغَرَ مِنَ الزَّوْرَقِ الَّذِي صَنَعْتُهُ. ولَمْ يَنْتَهِ الْعامُ الْخامِسُ حتَّى أتْمَمْتُ صُنْعَهُ. وَنَجَحْتُ في ذلِكَ نجاحًا باهِرًا. فَجَعَلتُ لَهُ شِراعًا، وَثَبَّتُّ فِيهِ مِظَلَّةً كَبِيرَةً وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الطَّوافِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِأَتَعَرَّفَ مَدَى هذِهِ الْمَمْلَكَةِ الَّتي كَتبَ عَلَيَّ الْقَدَرُ أَنْ أَكُونَ مَلِيكَها، أوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — مَدَى هذا السِّجْنِ الَّذِي أَبَتْ عَلَيَّ الْمَقادِيرُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ حَلِيفَهُ[١١] وَسَجِينَهُ.

وَهكَذا أَعْدَدْتُ الطَّعامَ وَالْماءَ لِهذِهِ الرِّحْلَةِ. وَلَمْ أَنْسَ سِلاحِي لِأُدافِعَ بِهِ عَنْ نَفْسِي إِذا حانَ وَقْتُ الْخَطَرِ. وَأَزْمَعْتُ[١٢] التَّجْوالَ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ طَوِيلٍ.

(٦) الطَّوافُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأَتُ هذِهِ الرِّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ الْسَّادِسِ مِنْ «نُوفَمْبِرُ »، بَعْدَ أَنْ مَرَّ علي سِتَّةُ أعْوامٍ فِي مَمْلَكَتِي، أَوْ فِي سِجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ[١٣] الصِّدْقَ فِي التَّعْبِيرِ! وَكانَتْ هذِهِ السِّياحَةُ أَطْوَلَ مِمّا قَدَّرْتُ.

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ — في أَثْناءِ هذِهِ الرِّحْلَةِ — لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطارِ، وَلكِنَّ تَوْفِيقَ اللهِ لازَمنِي، حتَّى عُدْتُ إِلى بَيْتِيَ الرِّيفِيِّ — ذاتَ مَساءٍ — وَقَدْ جَهَدَنِي[١٤] التَّعَبُ، فَاسْتَسْلَمتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ.

[١٠] حرها.

[١١] ملازمه.

[١٢] قررت.

[١٣] قصدت.

[١٤] أضعفني.

(٧) مُفاجَأَةُ الْبَبَّغاءِ

شَدَّ ما تمَلَّكَنِي الدَّهَشُ حِينَ طَرَقَ أُذني صَوْتٌ يُنادِينِي بِاسْمِي، وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وجَلاءٍ: «رُوبِنْسَنْ! إيهِ يا رُوبِنْسَن! ها أَنْتَ ذا يا رُوبِنْسَن! مِسْكينٌ أنْتَ يا رُوبِنْسَن! أيْنَ أَنْتَ؟ وَأَيْنَ كُنْتَ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يا روبِنْسَن كُرُوزُو؟»

وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي حَالِمٌ، وَلكِنَّ الصَّوْتَ عادَ يَقُولُ: «رُوبِنْسَن كُرُوزُو! إيهِ يا رُوبِنْسَن!»

فَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي الْعمِيق، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنِي الدَّهْشَةُ والذُّعْرُ.

وَما تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى عاوَدَتْنِي الطُّمَأْنِينَةُ، وَسُرِّي عَنْ نَفْسِي،[١٥] إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَبَّغائِي هِيَ مصْدَرُ هذا الصَّوْتِ، فَقَدْ رَأَيْتُها قَائِمَةً على السِّياجِ، فَعجِبْتُ مِنِ اهْتِدائِها إِلى هذا الْبَيْتِ، وَقدْ تَرَكْتُها فِي الْكهْفِ. وَعَجِبْتُ مِنْ تَخَيُّرِها هذا الْمَكانَ. وَلَمْ أَهْتَدِ إِلى حَلِّ هذا اللُّغْزِ. ثمَّ نادَيْتُها بِاسْمِها، فَأَسْرَعَتْ إِليَّ، وَوَقَفَتْ عَلَى إِبْهامِي، وَهِي تُكَرِّرُ سُؤَالَهَا مَسْرُورَةً مُبْتَهِجَةً بِلِقائِي: «أيْنَ كُنت يا رُوبِنْسَنْ كُرُوزُو؟ أين كُنْتَ يا مِسْكِينُ؟»

فَأَخَذْتُها مَعِي إِلى الْكَهْفِ، حَيْثُ عِشْتُ زُهاءَ عامٍ[١٦] فِي عُزْلَةِ السَّجِينِ ولَمْ يَكُنْ يُنَغِّصُ[١٧] عَلَيَّ صَفائِي وَسَعادَتِي فِي هذِهِ الْجَزِيْرَةِ إِلَّا أَنَّهَا مُقْفِرَةٌ عازِبَةٌ[١٨] لَيْسَ بِها أَنِيسٌ.

(٨) صَيْدُ الْمَعِيزِ

وَقدْ أَتْقَنْتُ كَثيرًا مِنَ الصِّناعاتِ، وَبَرَعْتُ فِيها بَراعَة نَادِرَةً، وَنَجَحْتُ في صِناعَةِ الْفَخَّارِ وَعَمَلِ السِّلالِ. وكُنْتُ أَصْطَادُ الْمَعِيزَ والسَّلاحِفَ كُلَّما احْتَجْتُ إِلى ذلكَ، فرأَيْتُ الْبَارُودَ الَّذِي ادَّخَرتُهُ عِنْدِي قَدْ نَقَصَ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْفَدَ، وبذلِكَ أَعْجِزُ أَنْ أَصْطادَ شَيْئًا مِنَ الحَيَوانِ.

---

[١٥] ذهب عنها الفزع.

[١٦] نحو سنة.

[١٧] يكدر.

[١٨] بعيدة.



فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْيِيرِ خُطَّتِي[١٩] هذهِ، فَنَصَبْتُ شِباكًا لِأَصْطادَ مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. وَلَمْ تَكُنْ شِباكِي صَالِحَةً لِصَيْدِها، فَقَدْ أَفْلَتَتْ مِنْها الْمَعِيزُ الَّتي وَقَعَتْ فِيها، لِضَعْفِ حِبالِها. فَلَجَأْتُ إلى طَرِيقَةٍ أُخْرَى.

[١٩] طريقتي.

وذلِكَ أَنِّي حَفَرْتُ حُفَرًا عَمِيقَةً في الْجِهاتِ الَّتي اعْتادَتِ الْمِعْزَى أَنَّ تَرْتادَها،[٢٠] وغَطَّيْتُ تِلْكَ الْحُفَرَ بِشِباكٍ مِنْ شَجَرِ الصَّفْصافِ، وألقَيْتُ علَيْها طبَقَةً مِنَ التُّرَابِ، وغَرَسْتُ فِيها سَنَابِلَ مِنَ الرُّزِّ والشَّعِيرِ. وقَدْ أَخْفَقَتْ[٢١] هذِهِ الطَّرِيقةُ — كما أخْفَقَتْ سابِقَتُها مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كانَتِ الْمَعيزُ تَنْفِرُ مِنْها. ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ خُدِعَتْ — بَعْد قَليلٍ — فَهَوَى في إِحْدَى الْحُفَرِ تَيْسٌ عَنِيدٌ؛ فَلَمْ أُفْلِحْ في تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهِياجِهِ، فاضْطُرِرْتُ إِلى إِطْلاقِه. وَلَوْ أَنَّني تَرَكْتُه في الْحُفْرَةِ أَيَّامًا حَتّى يُدَوِّخَهُ الْجُوعُ فَيَسْلَسَ[٢٢] قِيادُهُ، لَتَمَّ لِي ما أَرَدْتُ، وَلكِنَّ هذهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخَاطِرِي إِلَّا نَئِيشًا.[٢٣]

ثُمَّ وَقَعَ في حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ ماعِزَتانِ صَغِيرَتانِ وَجَدْيٌ صَغيرٌ، فَأَخَذْتُها جَمِيعًا إِلى مَسْكَني. وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكلَ شَيْئًا. ثمَّ راضَها الْجُوْعُ،[٢٤] واضْطَرَّها إِلى أَكْلِ ما قَدَّمْتُه لَها مِنَ الْحُبُوبِ.

وبَذَلْتُ جُهْدِي في تَهْيئَةِ مَرْعًى خِصْبٍ، وَسَوَّرْتُهُ بِسِياجٍ مَتِينٍ مِن الأَعْشابِ الْكَثيفَةِ، حَتَّى لا تَجِدَ إِلى الْفِرارِ سَبِيلًا.

وظَلِلْتُ أَتَعهَّدُها بِأَحْسَنِ أَلْوانِ الطَّعامِ الْحَبِيبِ إِلى نَفْسِها مِنْ سنَابِلِ الشَّعِيرِ وَحُبوبِ الرُّزِّ حَتَّى أَنِسَتْ بِي، فَفَكَكْتُ رِباطَها فَلَمْ تَهْرُبْ مِنِّي، وَظَلَّتْ تَتْبَعُنِي أَنَّى سِرْتُ، وتَثْغُو[٢٥] فَرِحَةً بِمَقْدَمِي كُلَّما رَأَتْنِي. وَبَعْدَ عامٍ وَنِصْفِ عامٍ أَصبَحَ لَدَيَّ قَطِيعٌ[٢٦] لا يَقِلُّ عَنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَدْيًا وَعَنْزًا. ثُمَّ تَضاعَفَ الْعَدَدُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ، وَأَصبَحَتْ حَياتي

---

[٢٠] تروح فيها وتجيء.

[٢١] لم تنجح.

[٢٢] يلين.

[٢٣] بعد فوات الفرصة.

[٢٤] ذللها.

[٢٥] تردد صوتها.

[٢٦] جمع.

رَغَدًا،[٢٧] وَعِيشَتي وادِعَةً ناعِمَةً؛ فَقَدْ كانتْ تُدِرُّ[٢٨] مَقادِيرَ وافِرَةً مِنَ اللَّبَنِ. فَلَمْ أُضِعْ هذِهِ الْفُرْصَةَ، وَعَزَمْتُ عَلَى صُنْعِ الْجُبْنِ والزُّبْدِ مِنْ أَلْبانِها، وَلَمْ يكُنْ لِي بذلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ.

وَما زِلْتُ أُدَرِّبُ نَفْسِي عَلَى هذا الْعمَلِ، حَتَّى وُفِّقْتُ إِلَيْهِ، وَنَجَحْتُ فِي تَحْقِيقِهِ أَكْبَرَ نَجاحٍ.

(٩) رِفاقُ «رُوبِنْسن»

وكانتْ مائِدَتي — فِي كُلِّ يَوْمٍ — حَافِلَةً[٢٩] بِشَتَّى أَلْوانِ الْغِذاءِ. وقَدْ نَعِمْتُ بِرِفاقي الْخُلَصاءِ: فالْبَبَّغاءُ تُنادِمُنِي[٣٠] وَتُسَلِّينِي بِحَدِيثِها، والْكَلْبُ يَجْلِسُ إِلى يَمِينِي — عَلَى الْمائِدَةِ — ويَجْلِسُ الْقِطَّانِ إِلى يَسارِي مُتقابِلَيْنِ. وقَدْ عَلِمَ الْقارِئُ — فَيما سَبَقَ — أَنَّنِي أحْضَرْتُ مَعِيَ قِطَّيْنِ مِنَ السَّفِينَةِ؛ فَلْيَعْلَمِ الْقارِئُ الْآنَ أَنَّهما ماتا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، بَعْدَ أَنْ نَسَلا[٣١] كَثِيرًا مِنَ الْقِطَطِ، وَلَمْ يخْلُصْ لِي مِنْها غَيْرُ هذَيْنِ الْقِطَّيْنِ. أَمَّا إِخْوَتُهُما فَكانَتْ شِرِّيرَةً ماكِرَةً، تَسْرِقُ كُلَّ ما تَلْقاهُ في طرِيقِها مِنَ الطَّعام؛ فَطَرَدْتُها مِنْ بَيْتِي شَرَّ طَرْدَةٍ، بَعْدَ أَنْ نَكَّلْتُ بِها.[٣٢] فَهَرَبَتْ إِلى الْغابَةِ، ولَمْ تَلْبَثْ إِلاَّ قَليلًا حتَّى عادَتْ إِلَى طَبْعِها الْوَحْشِيِّ الشَّرِسِ.

(١٠) زِيُّ «رُوبِنْسَنْ»

لَعَلَّ الْقارِئَ قَدِ اشْتاقَ إِلَى تَعَرُّفِ الزِّيِّ[٣٣] الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كُلَّما أَرَدْتُ أَنْ أَجُولَ فِي مَمْلَكَتِيَ الصَّغِيرَةِ، فَلْأُمَثِّلْ لهُ ذلِكَ الزِّيَّ الْعَجِيبَ:

[٢٧] هانئة.

[٢٨] تعطي.

[٢٩] مملوءة.

[٣٠] تجالسني.

[٣١] ولدا.

[٣٢] آذيتها.

[٣٣] الملبس.

كانَتْ قَلَنْسُوَتِي[٣٤] مُرْتَفِعَةً، وقَدْ صَنَعْتُها مِنْ جِلْدِ عَنْزٍ. وكانَتْ عَذَبَتُها[٣٥] مُدَلَّاةً عَلى قَفايَ لِتَحْمِيَنِي مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ. وكانَ سِرْوالِي مَصْنُوعًا مِنْ جِلْدِ تَيْسٍ هَرِمٍ، والشَّعْرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إِلى نِصْفِ ساقِي.



[٣٤] غطاء رأسي.

[٣٥] طرفها.

وكُنْتُ أَضَعُ فِي حِزامِي — وهُوَ أَيْضًا مِنْ جِلْدِ الْمَعِيزِ — مِنْشارًا وقَدُومًا، وأَحْمِلُ على كَتِفِي بُنْدُقِيَّةً، وأَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِي سَلَّةً كَبِيرَةً، فِيها طَعامِي وشَرابِي، وفِي يَدِي مِظَلَّتي، لِتَقِيَنِي لَفْحَ الشَّمْسِ،[٣٦] وهُطُولَ الْأَمْطارِ.

[٣٦] حرها.

الفصل السابع

جُمعَة

(١) آثارُ أَقْدامٍ

وفِي ذاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ آثارَ أقْدامٍ واضِحَةً عَلَى الرَّمْلِ؛ فَتَمَلَّكَنِيَ الذُّعْرُ، وخُيِّلَ إِلَيَ أَنَّ صاعِقَةً انْقَضَّتْ عَلَي.

وَتَلَفَّتُّ حَوْلِي خائِفًا، وَأَرْهَفْتُ أُذُنِي[1] فَلَمْ أَرَ إِنْسانًا، وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا.

وَصَعِدْتُ إِلى أَعْلَى هَضْبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ، وَأَجَلْتُ لِحاظِي فِي كلِّ مَكانٍ، فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِي هذا الْمَكانِ إِنْسِيًّا. وَقَدْ كِدْتُ أَظُنُّني واهِمًا[2] فيما رَأَيْتُ وَلَكِنَّ آثارَ الْقَدَمِ — وَهيَ عارِيَةٌ — لَمْ تَدَعْ لي مَجالًا لِلشَّكِّ، فَقدْ رَأَيتُ الأَصابِعَ وَالْعَقِبَ مُرْتَسِمَةً عَلى الرَّمْلِ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي رَيْبٌ[3] فِي حَقِيقَةِ ما رَأَيتُ، فَأَسْرَعْتُ إِلى كَهْفِي، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ جَيْشًا لَجِبًا[4] يُطارِدُني. وَبِتُّ لَيْلَةً نابِغِيَّةً،[5] وَلَمْ يَزُرِ النَّوْمُ جفْنِي حتَّى مَطلَعِ الْفَجْرِ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ.

[1] أصغيت.

[2] متخيلًا.

[3] شك.

[4] كبيرًا.

[5] ليلة طويلة حافلة بالهموم.



وَلزِمْتُ بَيْتِي ثَلاثَةَ أيَّامٍ كامِلَةً، ثُمَّ اضْطَرَّنِي الْجُوعُ إِلى الْخُرُوْجِ إِلى بَيْتِيَ الآخَرِ الَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ.[٦]

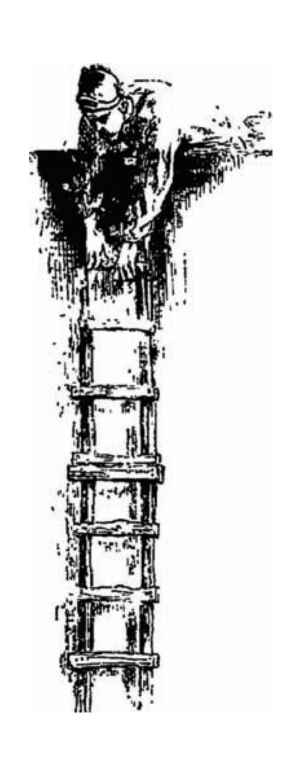
[٦] أشجار العنب.

(٢) الْحَيْطَةُ

وَهكَذا تَمَلَّكَتْنِيَ الدَّهْشَةُ والْحَيْرَةُ، فَقَد مرَّ عَلَيَّ — في هذِهِ الْجَزِيرةِ — خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا، لَمْ أَشْهَدْ فِيها أَحَدًا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ رُؤْيَتِي أَثَرَ الْقَدَمِ.

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي: «لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقارَّةِ الْمُجاوِرَةِ قَدْ وَفَدُوا عَلَى جَزيرَتِي، عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتْرُكُونَها بَعْدَ أَنْ يَجِدُوها غَيْرَ صالِحَةٍ لِلْإِقامَةِ.»

ورَأَيْتُ أَنْ أَحْتاطَ لِلطَّوارِئِ، حَتَّى لا يُفاجِئَنِيَ الْأَعْداءُ؛ فَزِدْتُ فِي تَحْصِينِ مَغارَتي، كما حَصَّنْتُ بَيْتِيَ الْآخَرَ.



وكُنْتُ لَا أَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِينًا بِسُلَّمَيْنِ، فَإِذا انْتَهَيْتُ مِنْ صُعُودِيَ الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السُّلَّمَ، ثُمَّ وضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نائِيَةٍ[٧] لِأَصِلَ إِلى حِصْنِي. ثُمَّ رَفَعْتُ السُّلَّم مَرَّةً أُخْرَى، لِيُصْبِحَ مُسْتَحِيلًا عَلَى كائِنٍ كانَ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ.

وَلَمْ يَمْضِ عَلَيَّ عامانِ — بعْدَ ذلِكَ — حَتَّى أَصْبَحْتُ عَلَى أَتَمِّ أُهْبَةٍ[٨] لِلنَّجاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ.

(٣) آثارُ الْغِيلانِ

وفِي ذات يَوْمٍ كُنْتُ أَرْتادُ الْجَزِيرَةَ عَلَى عادَتِي، وأَتَعَرَّفُ الْجِهاتِ النَّائِيَةَ الَّتِي لَمْ تَطَأْها قَدَمايَ مِنْ قَبْلُ، فَرَأَيْتُ مِنْ آثارِ الْمُتَوَحِّشِينَ ما فَزَّعَني، ومَلَأَ قَلْبِي رُعْبًا وهَلعًا، فَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هؤُلاءِ الْمُتَوَحِّشِين يَجِيئُونَ بِالْأَسْرَى — بَعْدَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِمْ فِي مَعارِكِهِم[٩] — إِلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هذِهِ الْجَزِيرَةِ، ثُمَّ يَشْوُونَ لُحُومَهُم عَلَى النَّارِ ويَأْكُلُونَها. وقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجَماجِمِ والأَشْلاءِ[١٠] مُبَعْثَرَةً فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ، عَلَى مَكانٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّمادِ الكَثِيرِ الَّذِي خَلَّفَتْهُ النَّارُ.

ورَجَعْتُ إِلى مَسْكَني مَهْمُومًا شَديدَ الْأَلَمِ مِمَّا رأَيْتُ. وتَبَيَّنَ لِي — حِينَئِذٍ — أَنَّ آثارَ تِلْكَ الْأَقْدامِ الَّتِي رَأَيْتُها مُنْذُ عامَيْنِ، لَمْ تَكُنْ إِلَّا آثارَ هؤُلاءِ الْغِيلانِ، فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي قَلِيلًا، بَعد أَنْ عَرَفتُ هذَا السِّرَّ الَّذِي لمْ أَهْتَدِ إِلى مَعْرِفتِهِ مَدَى عامَيْنِ، وكانَ مَجْلَبَةً[١١] لِلْخَوْفِ والْفَزَعِ.

وأَدْرَكْتُ أَنَّ هؤُلاءِ الْغِيلانَ لا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ في هذِهِ الجَزِيرَةِ، وأَنَّهُمْ لا يَجِيئُونَهَا إِلَّا لِيُقِيمُوا مَآدِبَهُمْ[١٢] فِيها، كُلَّما ظَفِرُوا بِأَسْراهُمْ فِي الْحُرُوبِ.

---

[٧] بعيدة.

[٨] استعداد.

[٩] حروبهم.

[١٠] الأعضاء.

[١١] سببًا.

[١٢] مجالس أكلهم.

وَلَقَدْ مَرَّ بِي ثَمانِيَةَ عَشَرَ عامًا، لَمْ تَقَعْ عَيْنايَ — فِي أَثْنائِها — عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ. فَلمَّا رَأَيْتُ ما رأَيْتُ اعْتَصَمْتُ[١٣] بِالْحَذَرِ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ لِلطَّوَارِئِ؛ حَتَّى لا تُفاجِئَنِي الْحَوادِثُ عَلَى غِرَّةٍ.[١٤]

(٤) مَأْدُبَةُ الْغِيلانِ

وَفِي شَهْرِ «دِيسَمْبرَ» — وكانَ قَدْ مَرَّ عَلَيَّ حِينَئِذٍ ثَلاثَةٌ وَعِشْرُونَ عامًا فِي هذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ — لَمْ أَخْرُجْ مِنْ بَيْتِي لِلْحَصادِ فِي فَجْرِ هذا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ، عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنْ بَيْتِي. وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هؤُلاءِ الْغِيلانَ يَرْتادُونَ هذهِ الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ؛ فَدَهِشْتُ، وَتمَلَّكَنِي الرُّعْبُ والْفَزَعُ. ورَجَعْتُ إِلى بَيْتِي مُسْرِعًا، وَرَفَعْتُ السُّلَّمَ، وَتَأَهَّبْتُ لِلدِّفاعِ عَنْ نَفْسِي. وَظَلَلْتُ أَتَرَقَّبُ الْعَدُوَّ ساعَتَيْنِ، ثُمَّ لَمْ أُطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبقَاءِ أَكْثرَ مِنْ ذلِكَ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ — بَعْدَ أَنْ وضَعْتُ عَلَيْها السُّلَّمَيْنِ — وانْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ. ونَظرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظَارِي؛ فَرَأَيْتُ تِسْعةً مِنْ هؤُلاءِ الْغِيلانِ جَالِسِينَ — فِي شَكْلِ حَلْقَةٍ — حَوْلَ نارٍ مُوقَدَةٍ، لِيُهَيِّئُوا طَعامَهُمْ مَنَ الْأَسْرَى الَّذِين جاءُوا بِهِمْ إِلى هذهِ الْجَزِيرَةِ.

وقَدْ جاءَ الْغِيلانُ عَلَى زَوْرَقَيْنِ، وجَذَبوهُما إِلى الشَّاطِئِ، وانْتَظَرُوا الْجَزْرَ حتَّى يَعودُوا أَدْراجَهُمْ. فَعلِمْتُ أَنَّهُمْ لا يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ إِلَّا فِي أَوْقاتِ الْجَزْرِ، فاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي إِلى ذلكَ، وَأَصْبَحْتُ أَمْشِي فِي الْجَزِيرَةِ آمِنًا، فِي أَوْقاتِ الْمَدِّ، فَإِذا انْحَسَرَ مَاءُ الْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذَرِي مِنْهُمْ، واسْتَعْدَدْتُ لِلطَّوارِئِ والْمُفاجَآتِ. ولَمْ يَبْدَأِ الْجَزْرُ حتَّى رَكِبُوا الزَّوْرَقَيْنِ. بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَويلًا، وظَلُّوا يَجْدُفُونَ بِقُوَّةٍ حتَّى اخْتَفَوْا عَنْ ناظِرِي، فَأَسْرَعْتُ إِلى الْمَكانِ الَّذِي كانَ يَجْلِسُ فيهِ هؤُلاءِ الْغِيلانُ؛ فَرَأَيْتُ — مِنْ أَثَرِ الْمَأْدُبَةِ الَّتي أَقامُوها — ما رَوَّعَنِي؛ رَأَيْتُ العِظامَ الْبَشَرِيَّةَ مُتَنَاثِرَةً حَوْلَ النَّارِ، فَثارَتْ نَفْسِي، وكِدْتُ أَتَمَيَّزُ

[١٣] تمسكت.

[١٤] غفلة.



مِنَ الْغَيْظِ. وقَدِ اشْتَدَّ حَنَقِي[١٥] عَلَى هذهِ القَسْوَةِ، وَعَزَمْتُ عَلَى الْفَتْكِ بِأَوَّلِ مَنْ أُقابِلُهُ مِنْ هؤُلاءِ الْغِيلانِ.

[١٥] زاد غيظي.



(٥) نَجاةُ الْأَسِيرِ

وظَلِلْتُ مُصِرًّا عَلَى مُناجَزَةِ[١٦] الْغِيلانِ مُدَّةً طويلَةً. وَمَضَى على ذلكَ ثمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، لَمْ أَعْثُرْ — في أَثْنائِها — عَلَى أَثَرٍ لِهؤُلاءِ الْهَمَجِ.

وفي صَباحِ يُوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوارِقَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ الْقَادِمِينَ لا يَقِلُ عَنْ ثَلاثِينَ. فَرَجَعْتُ إِلى حِصْنِي، وَرَأَيْتُهُمْ بِمِنْظارِي؛ فَكانَ عَدَدُهُمْ كما تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ. وَتأَهَّبْتُ لِمُناجَزَتِهِمْ، كَلَّفَني ذلكَ ما كَلَّفَني. ورَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وقَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْمَرَحُ.[١٧] ثُمَّ أَحْضَرُوا أَسِيرَيْنِ، فَقَتَلُوا أَحَدَهُما، وانْتَهَزَ الثَّانِي فُرْصَةَ اشْتِغالِهِما بِالْأَوَّلِ فَلاذَ بالْفِرارِ. وظَلَّ يَعْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ، وَتَبِعَهُ ثَلاثَةٌ مِنَ الْغِيلانِ، ولكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحاقَ بهِ.

ثُمَّ اعْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغيرٌ؛ فَأَلْقَى بِنَفْسِهِ فيهِ، وسَبَحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حتّى أَدْرَك الشَّاطِئَ الآخَرَ، وَلَمْ يُبالِ بِارْتِفاعِ الْمَدِّ وَاضْطِخابِ الْأَمْواجِ.

---

[١٦] محاربة.

[١٧] الفرح.

وتَعَقَّبَهُ اثْنَانِ، وعادَ الثَّالِثُ إلى رِفاقِه.

ورَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سانِحَةً لِإِنْقاذِ هذا الأَسِيرِ؛ لِأَنَّني كُنْتُ في أَشَدِّ الْحاجَةِ إلى خادِمٍ يُعاوِنُني في تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ الْعازِبَةِ.

فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ — وَفِي يَدِي بُنْدُقِيَّتِي — وَأَشَرْتُ إلى الْأَسِيرِ أَنْ يَقِفَ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ إِلَيَّ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُوَ[18] مِنِّي، وَحَسِبَنِي مِنْ أَعْدائِه. ثُمَّ فاجَأْتُ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشَيْنِ اللَّذَيْنِ يَتْبعانِهِ، فَضَرَبْتُهُ بِقَبْضَةِ بُنْدُقِيَّتي ضَرْبَةً شَدِيدَةً؛ فَخَرَّ صَرِيعًا[19] عَلَى الْأَرْضِ. وَحَاوَلَ الثَّانِي أَنْ يُفَوِّقَ[20] إِلَيَّ سِهامَهُ؛ فَعاجَلْتُهُ بِرَصاصَةٍ أَرْدَتْهُ — مِنْ فَوْرِهِ — قَتِيلًا.

وَوَقَفَ الْأَسِيرُ الْهَارِبُ — حِينَئِذٍ — وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَ دَوِيَّ[21] الرَّصاصِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ ذلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ. فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُوَ مِنِّي؛ فَتَرَدَّدَ في إطاعَةِ أَمْرِي، فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً؛ فَاشْتَدَّ فَزَعُهُ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ خُطُواتٍ يَسِيرَةً،[22] ثُمَّ يَقِفُ مُتَرَدِّدًا وقَدْ أَذْهَلَهُ الرُّعْبُ. فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ إِشارَةً ثالِثَةً، وَأَنا أُحاوِلُ جَهْدِي أَنْ أُطَمْئِنَهُ وَأُسَكِّنَ مِنْ رُوعِهِ. فَتَقَدَّمَ حتَّى دانانِي، وَجَثا[23] أَمامي مُتَوَسِّلًا ضارِعًا؛ فَهَشَشْتُ لَهُ، فَانْثَنَى يُقَبِّلُ قَدَمِي؛ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ مُتَوَدِّدًا حتَّى أَذْهَبْتُ عَنْهُ الْخَوْفَ.

ثُمَّ صَحِبْتُهُ إلى مَغارَتِي، وَأَطْعَمْتُهُ وسَقَيْتُهُ، وأَشَرْتُ إلى كَوْمَةٍ مِنَ القَشِّ، لِيَتَّخِذَها فِراشًا لَهُ؛ فَذَهَبَ لِيَنَامَ.

---

[18] يقرب.

[19] وقع ساقطًا.

[20] يوجه.

[21] صوت.

[22] قليلة.

[23] قعد على ركبتيه.

(٦) «جُمْعَةُ»

وَهكَذا انْقَضَى زَمَنُ الْعُزْلَةِ، وَأَصْبَحَ لي — مُنْذُ ذلِكَ الْيَوْمِ — رَفِيقٌ أَمِينٌ، شُجاعُ الْقَلْبِ، فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ؛ لَمْ تَكُنْ سِنُّهُ تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةٍ وعِشْرِينَ عامًا. وَكانَ هذا الْخادِمُ مِثالَ النَّشاطِ وَالذَّكاءِ وَالْوَداعَةِ.

وَلَمْ يَنَمْ نِصْفَ ساعَةٍ حتَّى اسْتَيْقَظَ، وَخَرَجَ مِنَ الْكَهْفِ مُسْرِعًا، إلى أَن وصلَ إِلَيَّ — وكُنْتُ أَحْلُبُ عَنْزًا — فَانْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي، ورَفَعَها فَوْقَ رَأْسِهِ، لِيُفْهِمَني أَنَّهُ طَوْعُ أَمْرِي ورَهْنُ إشارَتي. فَهَشَشْتُ لَهُ وأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حتَّى رَكَنَ إِلَيَّ، وسُرِّيَ عَنْ نَفْسِهِ،[٢٤] وانْقَضَى ما كان يُساوِرُهُ[٢٥] مِنَ الْقَلَقِ.

ثُمَّ بَذَلْتُ جُهْدِي في تَعْلِيمِهِ لُغَتِي، لِيَسْهُلَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَفاهَمَ مَعًا. وقَدْ سَمَّيْتُهُ «جُمْعَةَ»؛ لِأَنَّنِي أَنْقَذْتُهُ مِنَ الْهَلاكِ في يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْجُمَعِ، وهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ. ثُمَّ أَشَرْتُ إِليْهِ أنْ يُسَمِّيَنِي «السَّيِّدَ» وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتَيْ: «نَعَمْ» و«لا». ثُمَّ قَدَّمْتُ لهُ جَرَّةً، ومَلَأْتُ الْجَرَّةَ لَبَنًا، وغَمَسْتُ فِيها قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ وأَكَلْتُ. وأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْلِيدِي فِيما رَأَى مِنِّي. وقَدِ اسْتَساغَ هذا الطَّعامَ،[٢٦] وبَدا عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ. ثُمَّ صَنَعتُ لَهُ ثِيابًا كَثِيابِي، وَقَلَنْسُوَةً مِنْ جِلْدِ أَرْنَبٍ. وَصَنَعْتُ لَهُ — في الْيَوْمِ التَّالِي — كُوخًا بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِي لِيَنامَ فِيهِ؛ لِأَنَّني كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تُعاوِدَهُ[٢٧] وَحْشِيَّتُهُ، فَيَفْتِكُ بِي — في أَثْناءِ نَوْمِي — ويَأْكُلَنِي.

عَلَى أَنَّ الْأَيَّامَ أَقْنَعَتْنِي — بَعْدَ ذلِكَ — بِإِخْلاصِهِ؛ فَلَمْ أَرَنِي فِي حاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ. وَقَدْ وَفَى لِي[٢٨] وَفاءَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ، وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِبَذْلِ رُوحِهِ فِداءً لِي. وَمَرَّتْ بنا الْأَيَّامُ سَعِيْدَةً وادِعَةً.[٢٩]

---

[٢٤] ذهب همه.

[٢٥] يشغله.

[٢٦] وجده لذيذًا.

[٢٧] ترجع إليه.

[٢٨] حافظ عليَّ.

[٢٩] هادئة.



وَكُنْتُ — فِي ذاتِ يَوْمٍ — سائِرًا مَعَ «جُمْعَةَ» فِي أحَدِ الْأَحْراجِ، فَأَطْلَقْتُ رَصاصَةً عَلَى أحَدِ الْجِداءِ؛ فَصَرَعْتُهُ.[٣٠] وَما رَآني صَرَعْتُ الْجَدْي — وَأنا عَلَى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ مِنْهُ — حَتَّى اشْتَدَّ ذُعْرُهُ، وَانْتَظَمَهُ الرُّعاشُ مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ. فَقَدْ أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرَّصاصَةِ،

[٣٠] قتلته.



وَظَلَّ يَبْحَثُ فِي ثِيَابِهِ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ أصابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ. فَلَمَّا أيْقَنَ أنَّهُ لَمْ يُصِبْهُ أَقَلُّ ضَرَرٍ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمي ضارِعًا[٣١] ألَّا أقْتُلَهُ. فَطَمْأَنْتُهُ — مَرَّةً أُخْرَى — وَلاطَفْتُهُ، وَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ لِيُحْضِرَ الْجَدْيَ. ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقيَّتِي، وَصَوَّبْتُها إِلَى بَبَّغاء

[٣١] راجيًا.

جاثِمَةٍ[٣٢] عَلى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، وَأَخبَرْتُهُ أَنَّنِي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ الْبَبَّغاءِ. وَما أَطْلَقْتُ عَلَيْها الرَّصاصَةَ حَتَّى اشْتَدَّ ذُعْرُهُ، وَعَجِبَ مِمَّا فَعَلْتُ أَشَدَّ الْعَجَبِ، وَتَمَلَّكَتْهُ الْحَيْرَةُ، وَأَصْبَحَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا كُلَّما رَأَى تِلْكَ الْبُنْدُقِيَّةَ.

وَكانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يُكَلِّمُها مُسْتَعْطِفًا، ضارِعًا إِلَيْها أَنْ تُبْقِيَ عَلَى حَياتِهِ، وَأَلَّا تَصْرَعَهُ كَما صَرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبلُ! وَلَمَّا جاءَ الْمَساءُ سَلَخْتُ الْجَدْيَ، وَشَوَيْتُهُ، وَأَطْعَمْتُ «جُمْعَةَ» مِنْ لَحْمِهِ؛ فاسْتَمْرَأَهُ.[٣٣] وَأَصْبَحَ — مُنْذُ ذلِكَ الْيَوْمِ — يَعافُ[٣٤] اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ، وَلا يَسْتَسِيغُهُ طَعامًا.

(٧) نَشاطُ «جُمْعَةَ»

وَفِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ دَرَّبْتُ «جُمْعَةَ» عَلَى الْحَرْثِ وَالْبَذْرِ، وَوَضْعِ الشَّعيرِ فِي السِّلالِ، وَطَحْنِهِ وَعَجْنِهِ وَخَبْزِهِ. وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِ زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى أَكْسَبَتْهُ الْمَرانَةُ قُدْرَةً نادِرَةً عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيءٍ دَرَّبْتُهُ عَلَيْهِ. وَأَصْبَحَ لِي خَيْرَ مِعْوانٍ، بِفَضْلِ ما وَهَبَهُ الله مِنَ الذَّكاءِ وَالنَّشاطِ وَالْإِخْلاصِ. وَشَعَرْتُ بِالسَّعادَةِ تَغْمُرُنِي،[٣٥] مُنْذُ وَجَدْتُ ذلِكَ الْمُعِينَ الذَّكِيَّ. وَقَدْ أَصْبَحَ يُخلِصُ لِي بِمِقْدارِ ما أُخْلِصُ لَهُ، وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الْمَحَبَّةِ بَيْنَنَا، وَعَرَفَ أَسْمَاءَ الْأَشْياءِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْها، وَحَذَقَ تَخْطِيطَ هذِهِ الْجَزِيرَةِ وَمَسالِكَها؛ فَأَراحَنِي مِنَ الْعَناءِ، وَوَفَّرَ لِي أَسْبابَ الرَّاحَةِ، وكانَ لِي نِعْمَ الْأَنِيسُ.

(٨) وَطَنُ «جُمْعَةَ»

وَفِي ذاتِ يَوْمٍ جَرَّنا الْحَدِيثُ إِلى الْكَلامِ عَنِ الْوَطَنِ؛ فَسَأَلْتُهُ عَنْ طَرِيْقِ الْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ، وَهَلْ يَأْمَنُ رَاكِبُ الْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَثْناءِ هذِهِ الطَّرِيقِ؟ فَأَثْبَتَ أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ

[٣٢] قاعدة.

[٣٣] استحسنه.

[٣٤] يكره.

[٣٥] تملأ نفسي.

أَمْرٌ مَيْسُورٌ. وَظَلَّ يُحَدِّثُنِي عَنْ وَطَنِهِ أَحادِيثَ الْمُعْجَبِ الْمَفْتُونِ بِهِ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَنَّ فِي الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ بِلادِهِمْ قَوْمًا بِيَضَ الْوُجُوهِ، فَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَعْنِي بذلِكَ قَوْمًا مِنَ الإِسْپانِيِّينَ، وَأَنَّ طَرِيقَ الذَّهابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ مَأْمُونٌ. فَانْفَتَحَ أمامِي بابُ الْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلاصِي مِنْ هذِهِ الْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ. وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى إِعْدادِ الْمُعَدَّاتِ لِلسَّفَرِ إِلى هؤُلاءِ الْقَوْمِ، حَيْثُ أَجِدُ الْوَسائِلَ مُهَيَّأَةً لِلرُّجُوعِ إِلى وَطَنِي.

ثُمَّ حَدَّثَنِي أَنَّ زَوْرَقًا كَبِيرًا قَد انْقَلَبَ بِراكِبِيهِ — مُنْذُ أَعْوامٍ — وَكانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْبِيْضِ أَمْثالِي، وَقَدْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ، وَأَقامُوا — وَما زَالُوا يُقِيمُونَ — بَيْنَ عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ.

فَسَأَلْتُهُ: «وَكَيْفَ سَلِمُوا مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ؟ أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ؟»

فَقالَ لِي مُتَثَبِّتًا: «بَلْ أَصْبَحُوا إِخْوَةً لَنا؛ فَإِنَّ بَنِي وَطَنِي لا يَأْكُلُونَ إِلَّا أَسْرَاهُم في الْحَرْبِ، أَمَّا الْأَصْدِقاءُ الْمُسالِمُونَ فَلا يَنالُونَهُمْ بِسُوءٍ.»

(٩) ذِكْرَياتُ الْوَطَنِ

وَمَضَى عَلَى هَذا الْحَدِيثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ. ثُمَّ ارْتَقَيْنا[٣٦] — ذاتَ يَوْمٍ — قِمَّةَ جَبَلٍ شاهِقٍ،[٣٧] وكانَ الْجَوُّ صَحْوًا؛ فَلاحَتِ[٣٨] الْقارَّةُ الْبَعِيدَةُ. وما أَنْعَمَ «جُمْعَةُ» نَظَرَهُ مُتَثَبِّتًا مِنْ رُؤْيَةِ وَطَنِهِ حتَّى غَلَبَهُ السُّرُورُ عَلَى أَمْرِهِ، فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْفَرَحِ، وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «وا فَرْحَتاهُ! وا طَرَباهُ! هأَنَذا أَرَى بِلادِي! هأَنذا أَرَى وطَنِي!»

وامْتَلَأَ وَجْهُهُ بِشْرًا وسُرُورًا، وارْتَسَمَتْ عَلَى أسارِيرِهِ[٣٩] دَلائِلُ الْحَنِينِ والشَّوْقِ إِلى وَطَنِهِ، فَسَأَلْتُهُ: «أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلى بِلادِكَ؟»

فَأَجابَنِي وهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْقًا: «لَيْتَ هذِهِ الْأُمْنِيَّةَ تَتَحَقَّقُ، يا سَيِّدِي!»

---

[٣٦] صعدنا.

[٣٧] عالٍ.

[٣٨] ظهرت.

[٣٩] خطوط جبينه.



فَقُلْتُ لَهُ: «وماذَا تَصْنَعُ فِي بِلادِكَ؟ أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلى وَحْشِيَّتِكَ، وَتَرْتَدَّ إِلى طَبِيعَتكَ الْأُولى، فَتُصْبِحَ غُولًا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ؟»

فَقالَ لِي فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «كَلَّا، كَلَّا، فَإِنَّ «جُمْعَةَ» لَنْ يَعُودَ غولًا كما كانَ، وَسَوْفَ يَقُصُّ على قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَسْتَمْرِئُ الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ، وما إِلى ذلِكَ مِنْ

لَذَائِذِ الطَّعامِ. أَمَّا لَحْمُ الْإِنْسانِ فَقَدْ أَصْبَحَ «جُمْعَةُ» يَعافُهُ ولا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ في اتِّخاذِهِ طَعَامًا لَهُ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَوْ عَرَفُوا مِنْك ذلكَ لَأَكَلُوكَ!»

فقالَ لِي: «كَلَّا، لا يَأْكُلُونَني، بَلْ يَتَعَلَّمُونَ مِني كَيْفَ يُنَظِّمُونَ حَياتَهُمْ، وَكَيْفَ يَسْتَسِيغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ.»

فَسَأَلْتُهُ: «أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلى بِلادِكَ الآنَ؟»

فَقالَ لي مُبْتَسِمًا: «لَيْسَ في قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هذهِ الْمَسَافةَ الطَّوِيلَةَ سِباحَةً.»

فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوَصِّلُه إلى وَطَنِهِ؛ فَقالَ لِي: «حَبَّذا ذلِكَ لَوْ تَمَّ، على أَنْ أَكُونَ رَفيقَكَ في هذِهِ الرِّحْلَةِ. وَسَتَرَى كَيْفَ يَغْمُرُكَ أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أحدٌ في أنْ يَأْكُلَكَ، وَلا سِيَّما إِذا أَخْبَرْتُهُمْ بِأَنَّكَ أَنْقَذْتَ حَياتِي مِنَ الْهَلاكِ.»

وَما زالَ يُحَبِّبُ إِلَيَّ الذَّهابَ مَعَهُ إِلى وَطَنِهِ، وَيَقُصُّ عَلَيَّ كَيْفَ أَكْرَمُوا جَماعَةَ الْبِيضِ الَّذِينَ وصَلُوا إِلَيْهِمْ مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ، وكَيْفَ أَنِسُوا بِهِمْ، وارْتَاحُوا إِلى عِشْرَتِهِمْ؛ حتَّى أَجْمَعْتُ أَمْرِي[٤٠] وَتَأَهَّبْتُ لِهذِهِ الرِّحْلةِ؛ لَعَلِّي أَتَمَكَّنُ مِنَ الْعَوْدَةِ بَعْدَ ذلِكَ إلى وَطَني.

(١٠) الْمَرْكَبُ الشِّراعِيُّ

وَاشْتَدَّتْ رَغْبَتي في تَحْقِيقِ هذا الْحُلْمِ الْجَميلِ، فَذَهبْتُ مَع «جُمْعَةَ» إِلى الْمَكَانِ الذي وَضَعْتُ فيهِ زَوْرَقِي، ثُمَّ رَكِبْناهُ مَعًا؛ فَرَأَيْتُ «جُمْعَةَ» أَمْهَرَ مِنِّي وَأَقْدَرَ على مُتَابَعَةِ السَّيرِ ومُضاعَفَةِ السُّرْعَةِ. فَقُلْتُ لهُ: «أَفِي اسْتِطاعتِكَ الآنَ أَنْ تَذْهَبَ إِلى وَطَنِكَ؟»

فقالَ: «لَنْ يَحْتَمِلَ هذا الزَّوْرَقُ الصَّغِيرُ تِلْكَ الرِّحْلَةَ الطَّويلَةَ.»

فَقُلْتُ لَهُ: «عَلَيْنا أَنْ نُعِدَّ زَوْرَقًا أَكْبَرَ مِنْهُ لِتَرْكَبَهُ إِلى وَطَنِكَ.»

فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلى الْأَرْضِ، وقالَ لي مُتَأَلِّمًا مَحْزونًا: «ما الَّذي أَغْضَبَ سَيِّدِي عَلَيَّ؟ وَما بالُ سَيِّدِي يُحاوِلُ أَنْ يُقْصِيَ[٤١] عنهُ خادِمَهُ جَمْعَةَ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «أَلَا تَتَمَنَّى أَنْ تَعُودَ إِلى وَطَنِكَ؟»

---

[٤٠] عزمت.

[٤١] يبعد.

فَقالَ: «نعمْ، نَعم، أتمَنَّى ذلك مِن صَمِيمِ قَلْبِي، على أَنْ أَكونَ رَفيقَك في الْعَوْدةِ إلى بِلادي. أَمَّا أَنْ أَتْرُكَ صُحْبَتَكَ وَأَعُودَ وَحْدِي فَلا سبيلَ إلى ذلكَ، فليْسَ في قُدْرَتي أَنْ أَحْتَمِلَ فِراقَكِ بَعْدَ أَنِ امْتَلَأَ قَلْبِي بِحُبِّكَ، أَيُّها السَّيِّدُ الكَريمُ، الَّذي غَمَرَنِي بِعَطْفِه، وطَوَّقَ عُنُقي بِصَنائِعِه.»[٤٢] فَتظاهَرْتُ بِالْإِصْرَارِ[٤٣] لِأَخْتَبِرَ مَدَى حُبِّهِ إِيَّاي.

فَلمَّا رَآنِي جادًّا في رَفْضِي غابَ عنِّي قَليلًا، ثُمَّ عادَ إِلَيَّ وَفِي يَدِهِ قَدُومٌ، وقالَ لي، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْيَأْسُ والْحَزْنُ: «بِرَبِّكَ اقْتُلْني بهذهِ الْقَدُومِ، وَأَرِحْني مِن الْحَياةِ، ما دُمْتَ مُصِرًّا على إِرْسالِ «جُمْعَةَ» إلى قَوْمِهِ!»

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ في إِظْهَارِ مُوافَقَتِي على السَّفَرِ معهُ، بَعْدَ أَنْ بَلَوْتُ إِخْلاصَهُ،[٤٤] وَعَرَفْتُ مَدَى حُبِّهِ إِيَّاي. ووَعَدْتُهُ بِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِه في مُرَافَقَتِه إلى وَطَنِه. ولَمْ نُضِعْ وَقْتَنا عَبَثًا، بَعْدَ أَنْ عَزَمْنا عَلَى الْقِيامِ بِهذهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ؛ فَذَهَبْنا إلى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَطَعْناها. وَما زِلْنا دائِبَيْنِ[٤٥] في الْعَمَلِ حتَّى صَنَعْنا زَوْرَقًا كَبِيرًا في خِلالِ شَهْرٍ كامِلٍ. وبَعْدَ خمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، اسْتَطَعْنا أَن نُنَزِلَ الزَّوْرَقَ في الْبَحْرِ. وقَدْ تَكَبَّدْنا[٤٦] في سَبيلِ ذلكَ عَناءً لا يُوصَفُ. ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنا شَهْرانِ بَعْدَ هذا، حتَّى أَتْمَمْنا صُنْعَ الشِّراعِ والسَّارِيَةِ، كما أَنْجَزْنا صُنْعَ السُّكَّانِ[٤٧] وقَدْ بَذَلْتُ الْجُهْدَ في تَدْريبِ «جُمْعَةَ» على تَسْيِيرِ هذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيِّ حتَّى حَذَقَهُ وَأَتْقَنَهُ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هذا الْمَرْكَبِ الشِّراعِيِّ عَهْدٌ، وَلَمْ يَرَ لَهُ شَبِيهًا طُولَ عُمُرِهِ؛ فَقَدْ كانَ قَوْمُهُ لا يَعْرِفونَ إِلَّا الْجَدْفَ وَحْدَهُ، أَمَّا اسْتِخْدامُ الشِّراعِ والسُّكَّانِ فَذَلِكَ ما لَمْ يَأْلَفُوهُ، وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهِ. وقَدْ أَكْسبَتْهُ الْمَرانَةُ قُدْرةً عَجِيبَةً على تَسْيِيرِ مَرْكَبِنا الشِّراعِيِّ، وأَصْبَحَ — بَعْدَ قَليلٍ مِنَ الزَّمَنِ — رُبَّانًا ماهِرًا.

[٤٢] أعماله الجميلة.

[٤٣] العزم والثبات.

[٤٤] عرفته.

[٤٥] مواظبين.

[٤٦] قاسينا.

[٤٧] الدفة.

وَهكَذا تَمَّ لَنا إِعْدادُ الْعُدَّةِ لِلسَّفَرِ إِلَى وطَنِ «جُمْعَةَ»، وَلَمْ يُعْوِزْنا[٤٨] شَيءٌ مِنَ الْمُعَدَّاتِ.

(١١) حَرْبُ الْأَعْداءِ

وَمَضَتْ عَلَيَّ ثَلاثُ سَنَواتٍ بَعْدَ ذلكَ. وقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ — حِينَئِذٍ — جَنَّةً نَضِرَةً،[٤٩] بَعْدَ أَنْ كانَتْ مَنْفًى مُوحِشًا، فَقَدْ آنَسَني «جُمْعَةُ» بَعْدَ وَحْشَةٍ، وتَغَلَّبَ إِخْلاصُهُ وحُبُّهُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْنا في حَياتِنا.

وجاءَ الْعامُ السَّادِسُ والعِشْرُونَ، وأنا أَتَرَقَّبُ الْخَلاصَ مِنْ هذهِ الْجَزِيرَةِ. فَلَمَّا أَقْبَلَ الشِّتاءُ وَضَعْنا الزَّوْرَقَ في مَكانٍ أمينٍ، حَتَّى انْقَضَى «نُوفَمْبرُ» و«دِيسَمبرُ». ثُمَّ أَخَذْنا نُهَيِّئُ الْأَسْبابَ، ونَسْتَكْمِلُ مُعَدَّاتِ السَّفَرِ إِلى وَطَنِ «جُمْعَة».

وإِنَّا لَجَادَّانِ — في صَباحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، وقَدْ خَرَجَ «جُمْعَةُ» لِصَيْدِ السَّلاحِفِ كعادَتِهِ — إِذْ عادَ إِلَيَّ مُسْرِعًا، وهُو يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْرِ، ويَصِيحُ خائِفًا: «يا لَلْهَوْلِ يا سَيِّدِي!»

فَسَأَلْتُهُ: «أَيَّ هَوْلٍ تَعْنِي؟»

فَقالَ: «ثَلاثَةُ زَوارِقَ تَدْنُو إِلَيْنا، قادِمَةً عَلَيْنا.»

فَظَلَلْتُ أُطَمْئِنُهُ وأَسَرِّي عن نَفْسِهِ، وهُوَ لا يَكادُ يُصْغِي لِما أَقُولُ؛ فَقَدْ كانَ مُوقِنًا أَنَّ أَعْداءَهُ لَمْ يَعُودُوا إِلَى الْجَزيرةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ، وَيُمَزِّقُوا جِسْمَهُ، ويَشْوُوهُ عَلَى النَّارِ!

فَقُلْتُ لهُ: «تَشَجَّعْ يا «جُمْعَةُ»؛ فَلَنْ يُفيدَكَ الْجَزَعُ شَيْئًا، ولَنْ يُبْقِيَ الْأَعْداءُ عَلَى أَحَدٍ مِنَّا إذا ظَفِرُوا بِهِ. ولَيْسَ لَنا إِلَّا أَنْ نُوَطِّنَ نَفْسَيْنا[٥٠] عَلَى قِتالِهِمْ. وسأَبْذُلُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ، فَلا تُخالِفْ لِي أَمْرًا. وستَرَى كَيْفَ نَحْصُدُهُمْ[٥١] بِرَصَاصِنا حَصْدًا.»

---

[٤٨] لم ينقصنا.

[٤٩] جميلة خضراء.

[٥٠] نقويهما.

[٥١] نهلكهم.



وَما زِلْتُ بِهِ حتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجاعَتَهُ؛ فَبَنَى عَزَمَهُ على أَنْ يَسْتَبْسِلَ[٥٢] في قِتالِهِمْ، حتَّى نَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ نُمُوتَ كَريمَيْنِ.

وَتَأَهَّبْنا لِمُحَارَبَتِهِمْ، فارْتَقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ، فَرَأَيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِي — واحِدًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا جالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ. فَنَزَلْتُ إِلى سَفْحِ الْجَبَلِ،[٥٣] وَأَرْسَلْتُ «جُمْعَةَ» لِيَتَعَرَّفَ ما يَصْنَعُونَهُ؛ فَعادَ إِلَيَّ — بعْدَ قَلِيلٍ — وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ يَشْوُونَ أَحَدَ الْأَسْرَى على النَّارِ لِيَأْكُلُوا لَحْمَهُ. فَذَهَبْتُ إِلى الْغابَةِ وَمَعِي «جُمْعَةُ»، واخْتَفَيْنا بَيْنَ أَشْجارِها الْكَثِيفَةِ، حتَّى أَصْبَحْنا على مسافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَعْداءِ؛ فَرَأَيْنا رَجُلًا أَبْيَضَ الْوَجْهِ، مُلْتَحِيًا، مَشْدُودَ الْوَثاقِ، مَطْرُوحًا على الرَّمْلِ فَصَبَرْتُ عَلَيْهِمْ، حتَّى إِذا شَرَعُوا في حَلِّ وَثاقِه أَمَرْتُ «جُمْعَةَ» أَنْ

[٥٢] يعرض نفسه للموت.

[٥٣] أسفله.



يُطْلِقَ الرَّصاصَ معِي فِي وَقْتٍ واحدٍ. وكانَتْ مُفاجَأَةً عَجِيبَةً؛ فَقَدْ قَتَلَ «جُمْعَةُ» — وَحْدَهُ — اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَجَرَحَ ثَلاثَةً، وَقَتَلْتُ رَجُلًا واحِدًا وَجَرحْتُ اثْنَيْنِ.

وَما سمِعَ الْأَعْداءُ دَوِيّ الرَّصاصِ، وَرَأَوْا ما حَلَّ بِأَصْحابِهِمْ مِنَ الهَلاكِ وَالْأَذَى، حتَّى تَمَلَّكَهُمُ الْخَوْفُ، واسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الذُّعْرُ؛ فَلاذُوا بِالْفِرارِ،[٥٤] وَهُمْ لا يَكادُونَ يُصَدِّقُونَ بِالنَّجاةِ. وَرَكِبُوا زَوْرَقَيْنِ لِيَهْرُبُوا إِلى بِلادِهِمْ مِنْ هَذِهِ الصَّواعِقِ الَّتي لَمْ يَرَوْا لَها، فِي حَياتِهِمْ، مَثِيلًا. فاقْتَرَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْأَبْيَضِ وَحَيَّيْتُهُ، فَوَجَدْتُهُ أَقْرَبَ إِلى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلى الْحَياةِ. فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ، وَسَقَيْتُهُ وَأَطْعمتُه، حتَّى عادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ، وَأَفاقَ مِنْ إِغْماءَتِهِ، فَشَكَرَ لِي صَنِيعي أَحْسَنَ الشُّكْرِ. وَقدَ عَلِمْتُ أَنَّهُ إسْپانِيُّ الْأَصْلِ، وَأَنَّ سُوءَ حَظِّهِ أَوْقَعَهُ أَسِيرًا فِي تِلْكَ الْبِلادِ.

---

٥٤ لجأوا إلى الهرب.



(١٢) أبُو «جُمْعَةَ»

وَرَأَى «جُمْعَةُ» زَوْرَقًا تَرَكَهُ الْأعداءُ؛ فاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ نَرْكَبَهُ لِنُطارِدَهُمْ وَنَمْلَأَ قُلُوْبَهُمْ رُعْبًا وَهَلَعًا. فَأَعْجَبَنِي اقْتِراحُهُ، وَما وَصَلْنا إِلى الزَّوْرَقِ، حتَّى رَأَيْنا فِيهِ أَسِيرًا ثَالِثًا. فَفَكَكْتُ وَثاقَهُ، وَحاوَلْتُ أَنْ أُنْهِضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ لا يَتَماسَكُ مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ.

وَلَمْ يَرَ «جُمْعَةُ» هذا الْأَسِيرَ حتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ يُقَبِّلُهُ وَيُعانِقُهُ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ الْفَرَحُ حتَّى كادَ يُسْلِمُهُ إِلى الْجُنُوْنِ. فَظَلَّ يَبْكِي وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ وَيَفْرُكُ يَدَيْهِ، وَيَعَضُّ أَنامِلَهُ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ، وَيُغَنِّي، وَأَنا أُحاوِلُ أَنْ أَسْتَوْضِحَهُ سِرَّ هذا الْخَبالِ،[٥٥] وَهُوَ لا يُصْغِي إِلَيَّ. ثُمَّ هَدَأَ قَلِيلًا، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ قائِلًا: «اعْلَمْ أَنَّ هذا الْأَسِيرَ هُوَ أَبي. وَقَدْ أَنْقَذَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ، فَكَيْفَ لا يَتَمَلَّكُنِيَ الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ!»

[٥٥] الجنون.





فتَرَكْتُهُ في فَرَحِهِ، وَأُعْجِبْتُ بِهذا الْحُبِّ الْبَنَوِيِّ. وَقَدْ أَقْبَلَ «جُمْعَةُ» على أَبيهِ يُدْفِئُهُ وَيَتَعَهَّدُهُ — فِي حُنُوِّ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ الْبارِّ — وَيَفْرُكُ لَهُ ساقَيْهِ اللَّتَيْنِ أَضَرَّ بِهِما الوثاقُ، وَيَسْقِيهِ تارةً، وَيُطْعِمُهُ تارَةً أُخْرَى، حتَّى أَعَادَ إِلَيْهِ قُواهُ.

فَأَمَرْتُ «جُمْعَةُ» أَنْ يُعْنَى[٥٦] بِالرَّجُلِ الإِسْپاني — كَما عُنِيَ بِأَبِيهِ — فَلَمْ يَتَرَدَّدْ في إطاعَةِ أَمْرِي.



ثُمَّ حَمَلْنَا الإِسْپانِي وَأَبا «جُمْعَةَ» على لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ، لِعَجْزِهِما عَنِ السَّيْرِ، حتَّى وَضَعْناهُما فِي خَيْمَةٍ أَقَمْناها بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ، وَأَعْدَدْنا لِكُلٍّ مِنْهُما فِراشًا مِنَ الْقَشِّ. وَكانَ «جُمعَةُ» خَيرَ تَرْجُمانٍ يَنْقُلُ لِي ما يَقُولُهُ أَبُوهُ وَالإِسْپانِي الَّذِي أَتْقَنَ لُغَةَ أَعْدائِهِ، لِطُوْلِ عِشْرَتِهِ وَإِقامَتِهِ بَيْنَ ظَهْرانَيْهِمْ.[٥٧]

---

[٥٦] يهتم.

[٥٧] معهم.



ثُمَّ أَمَرْتُ «جُمْعَةَ» أَنْ يَدْفِنَ الْقَتْلَى، حتَّى لا تَفْسُدَ جُثَثُهُمْ، فَتُحْدِثَ رائِحَتُها الْأَمْراضَ الْخَبِيثَةَ؛ فَقامَ بِهذا العَمَلِ خَيْرَ قِيامٍ.

(١٣) بَعْدَ فِرارِ الْأَعْداءِ

وَقَضَيْنا زَمَنًا طَوِيلًا، وَنَحْنُ نَتَعاوَنُ عَلَى زَرْعِ الْأَرْضِ، وَتَوْفِيرِ أَسْبابِ الرَّاحَةِ وَالرَّخاءِ، وَيَأْتَنِسُ بَعْضُنا بِبَعْضٍ. وَسُرْعانَ ما تَمَّتِ الْأُلْفَةُ بَيْنَنا جَمِيعًا، وَأَصْبَحْنا أَصْفِياءَ مُتَحابِّينَ.

وَقَدْ سَأَلْتُ أَبا «جُمْعَةَ»، ذاتَ يَوْمٍ: «أَتُرانا[٥٨] فِي خَطَرٍ مِنْ غَارةِ أَعْدائِنا، مَرَّةً أُخْرى؟» فقالَ لِي فِي لَهْجَةِ الْحازِمِ الْمُسْتَيْقِنِ:[٥٩] «كَلَّا، لا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ بَعْدَ هذِهِ النَّكْبَةِ. وَما أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنَ الْعاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ، في أَثْناءِ فِرارِهِمْ. وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْها

---

[٥٨] أتحسبنا.

[٥٩] المتثبت.



لَما وَجَدُوا مِنَ الشَّجاعَةِ ما يَحْفِزُهُمْ[٦٠] إِلَى مُعاوَدَةِ الْكَرَّةِ؛ فَقَدْ أطارَ دَوِيُّ الرَّصَاصِ عُقُوْلَهُمْ. وَسيَقُصُّونَ على أَهْلِهِمْ وَأَصْحابِهِمْ ما رَأَوْهُ مِنْ الصَّواعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتي أَفْنَتْ جَمَاعةً مِنْ رِفاقِهِمْ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتحَدَّثُ — فِي أَثْناءِ فِرارِهِ — وَهُوَ مَدْهُوشٌ مِمَّا رَأى، وَقَدْ مَلَأَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالْعَجَبُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلى تَعْلِيلٍ يُفَسِّرُ بِهِ قُدْرَةَ أَعْدائِهِ عَلَى قَذْفِهِمْ بِالصَّواعِقِ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكِ[٦١] لِلْفَتْكِ بِمَنْ يُرِيدُونَ، عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، دُونَ عَناءٍ.»

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فِي تَكَهُّنِهِ وَحَدْسِهِ؛[٦٢] فَقَدْ عَلِمْتُ — فَيما بَعْدُ — أَنَّ أَعْداءَنا قَدْ أذاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِهِمْ — بَعْدَ أَنْ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — أَنْباءَ الصَّواعِقِ الَّتِي أَمْطَرْناها

[٦٠] يدفعهم.

[٦١] استخدامهما وقهرهما.

[٦٢] ظنه وتقديره.

عَلَيْهِمْ؛ فَمَلَئُوا قُلُوبَهُمْ رُعْبًا، وَأَيْقَنُوا أَنَّ هذهِ الْجَزِيرَةَ مَمْلُوءَةٌ جِنًّا وَعَفارِيتَ، فَلَمْ يَجْرُءُوا عَلَى الدُّنُوِّ مِنْها بَعْدَ ذلِكَ الْيَوْمِ. على أَنَّنِي تَأَهَّبْتُ لِنِضالِهِمْ،[٦٣] وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُمْ زَمَنًا طَوِيلًا، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنَّهُمْ يَئِسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ. فَاطْمَأَنَّتْ نَفْسِي، وَانْصَرَفْتُ إِلَى التَّفْكِيرِ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي. ومَرَّتْ بِنا سِنُونَ عِدَّةٌ، ونَحنُ آمِنُونَ وادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعَازِبَةِ.[٦٤] وقدْ سَهُلَ عَلَيْنا أَنْ نُنْجِزَ[٦٥] — مُتَعاوِنِينَ — كلَّ ما نَحْتاجُ إِلَيْهِ.

وقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْپانِي أَنَّ عَدَدَ أَصْدِقائِهِ — مِنَ الْإِسْپانِيِّينَ الَّذِينَ نَجَوْا مِنَ الْغَرَقِ — يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ، ولَدَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْبُنْدُقِيَّاتِ والْمُسَدَّساتِ، ولَيْسَ يُعْوِزُهُمْ[٦٦] إِلَّا الرَّصاصُ وَالْبارُودُ. وقَدْ حاوَلُوا الْعَوْدَةَ إِلَى بِلادِهِمْ؛ فَأَعْوَزَتْهُمُ الْمُعَدَّاتُ، فَأَقامُوا فِي تِلْكَ الْبِلادِ مُرْغَمِينَ.[٦٧] فَسَأَلْتُهُ: «أَتُرَاهُمْ يُلَبُّونَ[٦٨] اقْتِرَاحي، إذا هَيَّأْتُ لَهُمْ أَسْبابَ السَّفَرِ؟»

فَقالَ لِي: «لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هذِهِ الْأُمْنِيَّةِ.»

وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أَبِي «جُمْعَةَ» لِمُقابَلَتِهِمْ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ فِي ذلِكَ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِي: «إِنَّهُ سَيَكُونُ — هُوَ وَرِفاقُهُ — رَهْنَ إِشارَتِي، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِالْوَفاءِ لِي، قَبْلَ أَنْ يُحْضِرَهُمْ إِلَى جَزِيرَتِي. وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ رَكِبَ الْإِسْپانِيُّ وَالشَّيْخُ زَوْرَقَ الْأَعْداءِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدْتُهُما بِكُلِّ ما يَحْتاجانِ إِلَيْهِ، مِنْ طَعامٍ وَسِلاحٍ، وَرَجَوْتُ لَهُمَا سَفَرًا سَعِيدًا وَعَوْدًا حَمِيدًا.

[٦٣] محاربتهم.

[٦٤] البعيدة.

[٦٥] نتم.

[٦٦] لا ينقصهم.

[٦٧] مكرهين.

[٦٨] ينفذون.

الفصل الثامن

العَوْدَةُ إِلَى الوَطَن

(١) الْمُفاجَأَةُ

ظَلِلتُ أَتَرَقَّبُ عَوْدةَ الشَّيْخِ وَالْإِسْپاني ثَمانِيَة أَيَّامٍ. ثُمَّ وَقَعَ لِي حادِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لِي على بالٍ. فقَدِ اسْتَيْقَظْتُ مِن نَوْمِي على صُراخِ «جُمْعَة»، وهُوَ يَصِيحُ ويُنادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «سَيِّدِي سَيِّدِي! لقَدِ اقْتَرَبُوا مِنَّا.»

فارْتَدَيْتُ ثِيابي — مِن فَوْرِي — وَأَسْرَعَتُ نَحْوَ الشَّاطِئ. وَأجلْتُ لِحاظِي في عُرْضِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ زَوْرَقًا شِرَاعِيًّا مُيَمِّمًا[1] جَزِيرَتَنا؛ وهُو عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَنِصْفِ ميلٍ منها. فَأَمَرْتُ «جُمْعَةَ» أَنْ يَتَرَيَّثَ[2] في الْأَمْرِ، حتَّى نَتَعرَّفَ جَلِيَّتَهُ.[3] وَأَكَّدْتُ لهُ أَنَّ راكِبِي الزَّوْرَقِ لَيْسُوا أصْحابَنا الَّذِينَ أَرْسَلْنا أباهُ والإِسْپانِي لِإِحْضارِهِمْ، وليْسَ في قُدْرَتِنا أَنْ نَعْرِفَ: أَأَعْدَاءٌ لَنا أَمْ أَصْدقاء؟

ثمَّ ارْتَقَيْتُ[4] قِمَّةَ الْجبَلِ، وَرَأَيْتُ — مِنْ خِلالِ مِنْظارِي — سَفِينَةً واقِفَةً على مَسافةِ مِيلَيْنِ ونِصْفِ مِيلٍ تَقْرِيبًا. وقدْ عَرَفْتُ — مِنْ أُسْلوبِ بِنائِها — أَنّها سَفِينَةٌ مِن سُفُنِ بِلادِنا؛ فَأَيْقَنْتُ أَنَّ خَلاصِي مِنَ الْأَسْرِ قَرِيبٌ، وَفاضَ قَلْبي بِشْرًا وَسُرُورًا. وَلكنَّنِي شَعَرْتُ — في نَفْسِي — بِشَيءٍ مِنَ الِانْقِباضِ يُنَغِّصُ عَلَيَّ هذا الْفَرَحَ.

---

[1] قاصدًا.

[2] يتمهل.

[3] حقيقته.

[4] صعدت.

فَقَدْ تَوَجَّسْتُ[٥] شَرًّا؛ لِأَنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُعَلِّلَ اقْتِرَابِ مثْلِ هذهِ السَّفِينَةِ منْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ، عَلَى غَيْرِ حاجَةٍ إِلَى الْمُرُورِ بِها. ورَأَيْتُ — منَ الحَزامَةِ[٦] وَأَصَالَةِ الرَّأْيِ — أَنْ أتَرَيَّثَ؛ حتَّى أَتَبَيَّنَ الْحَقِيقَةَ واضِحةً، لا لَبْسَ فِيها ولا غُمُوض.

(٢) شَكْوَى الرُّبَّانِ

ولَمَّا رَسا الزَّوْرَقُ عَدَدْتُ راكِبيهِ؛ فَرأَيْتُهُمْ أحدَ عَشَرَ مِنْ بَنِي وَطَني، ورَأَيتُ — مِنْ بَيْنِهِمْ — ثَلاثةً مَشْدُودِي الْوَثاقِ. ثُمَّ قَفَزَ خَمْسَةُ رِجالٍ إِلى الشَّاطِئِ يَقُوْدُونَ أَسْراهُمْ بِالْحِبالِ، فلمْ أَفْهَمْ شَيْئًا، ولَمْ أَهْتَدِ إِلى حَلِّ هذا اللُّغْزِ الْغامِضِ.

فَقالَ لِي خادِمي «جُمْعَةُ»: «لا شَكَّ في أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ أَسْراهُمْ كما يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنا.»

فَأَكَّدْتُ لهُ أَنَّ هذا لَنْ يكونَ، وَلَنْ يَتَعَدَّى انْتِقامُهُمْ مِنْ أَسْراهُمْ أَنْ يَقْتُلوهُم، أَمَّا أَنْ يَأْكُلوهُمْ فَذلِكَ ما لا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلَدٍ.[٧]

وبَعْدَ قَليلٍ تَرَكوا الْأَسْرَى في مكانِهِمْ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ الْجَزِيرَةَ[٨] مُتَنَزِّهِينَ، حتَّى السَّاعةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ. فَوَقَفُوا يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أشْجَارِ الْغابَةِ، بَعْدَ أنِ اشْتَدَّتْ حَرارةُ القَيْظِ، وَجَهَدَهُمُ[٩] الْحَرُّ؛ فَانْطَرَحُوا عَلَى الْأَرْضِ، وَاسْتَسْلَمُوا لِلنَّوْمِ.

فَدَنَوْتُ مِنَ الْأَسْرَى، وَسأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقَائِهِمْ؛ فارْتَعَدَتْ فَرائِصُهُمْ[١٠] مِنْ رُؤْيَتِي. وَلكِنَّنِي طَمْأَنْتُهُمْ حَتَّى سُرِّيَ عَنْهُمْ[١١] ورَأَوْا أَمَلًا كَبِيرًا فِي خَلاصِهِمْ.

[٥] أحسست.

[٦] الحكمة.

[٧] لا يمر بعقلهم.

[٨] يجولون فيها.

[٩] أتعبهم.

[١٠] فزعوا.

[١١] ذهب خوفهم.

وَقَدْ قالَ لِي أَحدُهُمْ، وَقَدْ شَرِقَتْ[١٢] عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ: «أنا رُبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقِلُّ هؤُلاءِ الْمَلَّاحِينَ. وَقَدْ ثارَ عَلَيَّ رِجالِي وَتَمَرَّدُوا، وَعَزَمُوا عَلى أَنْ يَتْرُكُوني فِي هذهِ الْجَزِيرَةِ الْعازِبَةِ الْمُقْفِرَةِ، مَعَ هذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أَبَيَا[١٣] أَنْ يَشْرَكاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعِصْيانِهِمْ.»

(٣) النَّصْرُ

فسَأَلْتُهُ: «أَتُعاهِدُني عَلَى أَنْ تُقِلَّني وَصاحِبِي «جُمْعَةَ» فِي سَفِينَتِكَ، إِذَا أَنْقَذْتُكَ مِنْ هذِهِ الْوَرْطَةِ[١٤]؟»

فَقال: «لَوْ تَمَّ ذلِكَ لَأَصْبحْتُ رَهْنَ إِشارَتِكَ.»

فَرَسَمْنا خُطَّةً بارِعَةً لِلْقَبضِ عَلَى الْعُصاةِ، والِاسْتيلاءِ عَلَى زَوْرَقِهِمْ.

وَقَدْ فاجَأْناهُمْ وَهُمْ نائِمُونَ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَيَّ جَيْشًا كَبِيرًا؛ فاضْطُرَّ أَكْثَرُهُمْ إِلَى الإِذْعانِ،[١٥] وَعاهَدُونا عَلَى الإِخْلاصِ.

ثُمَّ ذهَبَ الرُّبَّانُ و«جُمْعَةُ» وَرِفاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ، وَأَسَرُوا وَكِيلَ الرُّبَّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نَار الْفِتْنَةِ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقاتٍ مِنْ مَدْفعِ السَّفِينَةِ إِعْلانًا لِانْتِصارِهِمْ. فَلَمْ أَعُدْ أَتَمالَكُ مِنَ الْفَرَحِ، وَلَمْ أَكَدْ أُصَدِّقُ ما أَرَى؛ فارْتَمَيْتُ عَلى فِراشِي، وَاسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ.

ثُمَّ جاءَ الرُّبَّانُ وَعانَقَني، وَقالَ لِي: «إِنَّ السَّفِينَةَ وَرُبَّانَها وَمَلَّاحِيها لَيْسُوا إِلَّا مِلْكَ يَدَيْكَ وَطَوْعَ إِشارَتِكَ.» فأَيْقَنْتُ — حِينَئِذٍ — بِالْخَلاصِ، وغَلَبَنِيَ السُّرُورُ عَلى أَمْرِي؛ فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنْبِسَ[١٦] بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ.

---

[١٢] امتلأت.

[١٣] امتنعا.

[١٤] إذا خلصتك من هذا المكان الذي يعرضك للهلاك.

[١٥] التسليم.

[١٦] أنطق.



ثُمَّ أَفَقْتُ مِنْ ذُهُولِي ودَهْشَتي، فَأَقْبَلْتُ عَلى الرُّبَّانِ أُعانِقُهُ وأَشْكرُ لَهُ أَحْسَنَ الشُّكْرِ. وَقَدْ أَحْضَرَ لِيَ الرُّبَّانُ هَدايا فاخِرَةً، وأَطْعِمَةً لَذِيْذَةً، وثِيابًا جَمِيلةً، وَما إِلَى ذلِكَ مِنَ التُّحَفِ والطُّرَفِ.[١٧]

(٤) مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنا إِلَّا أَنْ نَتَأَهَّبَ لِلسَّفَرِ. وَقَدِ اسْتَقَرَّ رَأْيُنا على تَرْكِ زُعَماءِ الثَّوْرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ؛ حَتَّى لا يُفْسِدُوا عَلَيْنا أَمْرَنا. وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسائِلَ الْعَيْشِ وَأَسالِيبَ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْبِقاعِ،[١٨] وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ، وكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصُدُونَ، وَكَيْفَ يُجَفِّفُونَ الْعِنَبَ، وَما إِلى ذلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ. ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ

[١٧] الأشياء الغريبة الثمينة.

[١٨] الأراضي.

إِسْبانيًّا قادِمُونَ عَلَيْهِمْ — بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ — وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتابًا إِلَيْهِمْ أُوصِيهِمْ بِهِمْ خَيْرًا. وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاثِيقَ والْعُهُودَ أَنْ يَعِيشُوا جَمِيعًا مُتَعاوِنِينَ مُتَحابِّينَ.

وَتَرَكْتُ لَهُمْ ما كانَ لَدَيَّ مِنْ سِلاحٍ، وَهُوَ خَمْسَةُ مُسَدَّساتٍ، وَثلاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ، وَثلاثَةُ سُيُوفٍ، كما تَرَكْتُ لَهُمْ كلَّ ما بَقِيَ عِنْدِي مِنَ الْبارُودِ والرَّصاصِ. وَشَرَحْتُ لَهُمْ: كَيْفَ يَتَعَهَّدُونَ الْمِعْزَى؟ وَكَيْفَ يَحْلُبُونَ لَبَنَها؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ والْجُبْنِ؟

(٥) فِي أَرْضِ الْوَطَنِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي وَدَّعْتُ هذهِ الْمَمْلَكَةَ النَّائِيَةَ، وأَخَذْتُ مَعِي قَلَنْسُوَتِي — وهِي مِنْ جِلْدِ مَاعِزٍ، كما عَلِمَ القارِئ — ومِظَلَّتي وبَبَّغائِي. وأَخَذْتُ ما كانَ عِنْدِي مِنَ النُّقُودِ، وَقَدْ عَلاها الصَّدأُ لِطُولِ احْتِجابِها فِي أَثْناءِ هذِهِ الأَعْوامِ.

ثُمَّ أَقْلَعَتْ بنا السَّفِينَةُ فِي التَّاسِعِ عَشَرَ مِنْ «دِيسمْبِرَ» عامَ ١٦٨٦م بعْدَ أَنْ لَبِثْتُ فِي هذِهِ الْجَزِيرَةِ ثَمانِيَةً وعِشْرِينَ عَامًا وشَهْرَيْنِ وتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا. وقَدْ فَرِحَ «جُمْعَةُ» بِمُرَافَقَتي إِلى بِلادِي، وآثَرَ صُحْبَتي[١٩] على كُلِّ شَيْءٍ.

ومِنْ عَجِيبِ الْمُصادَفاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلاصِي مِنْ هذِهِ الْجَزِيرَةِ وافَقَ يَوْمَ خَلاصِي مِنَ الْأَسْرِ فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ، الَّتِي عَرَفَها القارِئُ العَزِيزُ.

وفِي الْيَومِ الْحَادِي والْعِشْرِين مِنْ شَهْرِ «يُنْيَةَ» عامَ ١٦٨٧م وَصَلْتُ إِلى «لَنْدَنَ» بَعْدَ أَنْ غِبْتُ عَنْها خَمْسَةً وثَلاثِينَ عامًا.

(٦) السَّفَرُ إِلَى لِشْبُونَةَ

وَرَأَيْتُني غَرِيبًا في بِلادِي، وَوَجَدْتُ والِدَيَّ قَدْ ماتا مُنْذُ زَمَنٍ طوِيلٍ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفاقِي الْقُدَماءِ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ إِلى «لِشْبُونَةَ»، لِأَتعرَّفَ وَسِيلَةً إِلَى الِاسْتِفْسارِ عَمَّا

[١٩] اختار أن يلازمني.



آلَتْ إِلَيْهِ دَسْكَرَتِي،[٢٠] في «الْبَرَازِيلِ». وقَدْ عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ إلَى «لِشْبُونَةَ» — وَمَعِي «جُمْعَةُ» — فَبَلَغْناها في «أَبْرِيلَ».

وَعَثَرْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي — على رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّذِي أَنْقَذَني في رِحْلَتِيَ الْأُولَى حِينَ فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ، وكانَ قَدْ شاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لِوَلَدِهِ فذَكَّرْتُهُ بقِصَّتي، وَسَأَلْتُهُ عَنْ

[٢٠] قريتي.

دَسْكَرَتِي فِي «الْبَرَازِيلِ»؛ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْها مُنْذُ تِسْعِ سَنَواتٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْلُ جُهْدًا فِي إِرْسالِ الرُّسُلِ إِلَى شُرَكائِي، حَتَّى ظَفِرَ — بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ — بِنَصِيبِي مِنَ الْمالِ وَالْبَضائِعِ؛ فَأَرِبَتْ[٢١] ثَرْوَتِي على خَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْجُنَيْهاتِ.

وَقدْ ضَمِنْتُ بِذلكَ رَيْعًا سَنَوِيًّا — مِنْ ضَيْعَتي بِالْبَرَازِيلِ — لا يَقِلُّ عَنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ؛ فَأَجْزَلْتُ مُكافَأَةَ الرُّبَّانِ الْمُحْسِنِ، اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ عَلَيَّ، وَصَنِيعِهِ الَّذِي أَسْلَفَهُ إِلَيَّ.

وَبَقِيتُ عِدَّةَ أَشْهُرٍ حائِرًا مُضْطَرِبًا، لا أَدْرِي: إِلَى أَيِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ؟ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزْمِي عَلَى السَّفَرِ إِلَى «إِنْجِلْترا».

[٢١] زادت.

الفصل التاسع

أَهوالُ البرِّ

(١) السَّفَرُ إِلَى «مَدْرِيدَ»

وَبَقِيتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتي أَتَخَيَّرُ سُلُوكَها، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ، بَعْدَ ما لَقِيتُهُ مِنَ الْأَخْطارِ وَالْمَتاعِبِ. وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفَرَ فِي الْبَرِّ آمَنُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ؛ فَعَزَمْتُ على السَّفَرِ إِلَى «مَدْرِيدَ»، بِحَيْثُ أَجْتازُ طريقَ الْبَرِّ إِلى «فَرَنْسا»، ثُمَّ لا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسافَةٌ قَصِيرَةٌ أَعْبُرُها — فِي الْبَحْرِ — بَيْنَ «كاليه» و«دُوڤَر».

وَقَدْ وُفِّقْتُ إِلَى رِفاقٍ يَصْحَبُونَنِي في هذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ — وَكانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنَ السَّادَةِ، وَخَمْسَةً مِنَ الْخَدَمِ — حَتَّى وَصَلْنا إِلَى «مَدْرِيدَ».

(٢) الذِّئْبانِ

وَقَدِ اضْطُرِرْنا إِلَى مُغَادَرَةِ «مَدْرِيدَ» لِقُرْبِ حُلُولِ الشِّتاءِ وَعَلِمْنا أَنَّ الطَّرِيقَ — الَّتي أَزْمَعْنا[١] اجْتِيازَها — خَطِرَةٌ فِي هذا الْفَصْلِ. وَقَدْ كانَ الشِّتاءُ قَاسِيَ الْبُرُودَةِ، وَرَأَيْنا الثُّلُوجَ تُغَطِّي الْجِبالَ؛ فَنَدِمْنا عَلَى مُخاطَرَتِنا بِالسَّفَرِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْئُومِ.

وَكانَ مَعَنا دَلِيلٌ ذَكِيٌّ شُجاعٌ. وَما زِلْنا سائِرِينَ — عِدَّةَ أَيَّامٍ — حَتَّى قَطَعْنا مَرْحَلَةً كَبِيرَةً في رِحْلَتِنا الْمُضْنِيَةِ.[٢]

---

[١] قررنا.

[٢] المتعبة الشاقة.



وَكانَ الدَّلِيلُ يَتَقَدَّمُنا أَحْيانًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْنا لِيُرْشِدَنا إِلَى الطَّرِيقِ.

وَفِي ذاتِ مَرَّةٍ بَعُدَ عَنَّا — كَعادَتِهِ — فانْقَضَّ عَلَيْهِ ذِئْبانِ. وَرَأَى الدَّلِيلُ هَلاكَهُ مُحَقَّقًا وَشِيكًا؛ فَصَرَخَ مِنَ الْفَزعِ، فَأَدْرَكَهُ «جُمْعَةُ»، وأَطْلَقَ رَصاصَةً عَلَى أَحَدِ الذِّئْبَيْنِ، فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِسَ الدَّلِيلَ. وَفَرَّ الذِّئْبُ الآخَرُ هارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ.

(٣) الدُّبُّ

ثُمَّ رَأَى «جُمْعَةُ» دُبًّا هائلَ الْجِرْمِ[٣] مُقْبِلًا عَلَيْهِ؛ فاشْتَدَّ رُعْبُنا.

وَلَكِنَّ «جُمْعَةَ» سَخِرَ مِنْهُ،[٤] وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ أَماراتُ الْغِبْطَةِ[٥] بِمُصارَعَةِ الدُّبِّ.

---

[٣] الجسم.

[٤] هزئ به.

[٥] علامات الفرح.



ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ قائلًا: «أَرْجُو أَلَّا تُعَكِّرُوا عَلَيَّ صَفائِي؛ فَإِنَّنِي أُحِبُّ أَنْ أُداعِبَ هذا الدُّبَّ، لِأُسَرِّيَ عَنْكُمْ قَلِيلًا. فَحَذارِ أَنْ تُطْلِقُوا عَلَيْهِ الرَّصاصَ.»

ثُمَّ قَذَفَهُ «جُمْعَةُ» بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ، فَجَرَى الْدُّبُّ مُسْرِعًا إِلَيْهِ فَصَعِدَ «جُمْعَةُ» شَجَرَةً عالِيَةً، فَوَقَفَ الدُّبُّ تَحْتَهَا قَلِيلًا، ثُمَّ تَسَلَّقَها.[٦] فَأَمْسَكَ «جُمْعَةُ» بِأَحَدِ أَغْصانِ الشَّجَرَةِ، وَظَلَّ يَهُزُّ الْغُصْنَ هَزًّا عَنِيفًا، وَهُوَ ساخِرٌ مِنْ حَيْرَةِ الدُّبِّ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ فِي أَثْناءِ

[٦] صعدها.

ذلِك. ثُمَّ صَوَّبَ «جُمْعَةُ» رَصاصَةً إِلى أُذُنِ الدُّبِّ — بَعْدَ أَنْ أَرْقَصَهُ طَويلًا — فقَتَلهُ. وقَدْ أَضْحَكَنا كَثِيرًا.

(٤) لَيْلَةٌ هائِلَةٌ



وَرَأَيْنا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ، والنَّهارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَضِيَ. فَضاعَفْنا السَّيْرَ مُسْرِعِينَ؛ لِنَجْتازَ الْمَسافَةَ القَلِيلَةَ الْباقِيَةَ عَلَيْنا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ الْمُفَزِّعَةِ. وَما غَرَبَتِ الشَّمْسُ حتَّى مَرَّتْ بِنا خَمْسَةُ ذِئابٍ؛ فَلَمْ نَأْبَهْ لَها.[٧] وكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ[٨] — فِي كُلِّ لَحْظَةٍ — لِمُدافَعَةِ الذِّئابِ الْكَثِيرَةِ، الَّتي سَتَعْتَرِضُنا فِي الطَّرِيقِ، كَما أَخْبَرَنا الدَّلِيلُ.

---

[٧] لم نهتم بها.

[٨] مستعدين.

وَما تَقَدَّمْنا نصْفَ فَرْسَخٍ[٩] بعْدَ ذلِكَ، حتَّى رَأَيْنا ذِئابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ لَحْمَ جَوادٍ مَيِّتٍ، وَقَدْ مَزَّقَتْهُ تَمْزِيقًا.

وَلَمْ نَجْتَزْ مَرْحَلَةً قَصِيرَةً أُخْرَى، حَتَّى مَلأَتِ الذِّئابُ الْجَوَّ بِعُوائِها. وَرَأَيْنا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ ذِئْبٍ تَكْتَنِفُنا،[١٠] مُتَحَفِّزَةً لِلْوُثُوبِ عَلَيْنا، والْفَتْكِ بِنا، فَأَطْلَقْنا عَلَيْها الرَّصاصَ، وَصَرَخْنا صَرَخَاتٍ عالِيَةً لِنُخِيفَها.

فَوَلَّتِ الذِّئابُ هارِبَةً.

وَلَمَّا قَطَعْنا مَرْحَلَةً أُخْرَى، أَحاطَتْ بِنا قُطْعانٌ كَبِيرَةٌ، وَسَمِعْنا صَوْتَ رَصاصَةٍ بِالْقُرْبِ مِنَّا، وَرَأَيْنا جَوادًا يُسابِقُ الرِّيحَ، وَتَعْدُو فِي إِثْرِهِ جَمْهَرَةٌ مِنَ الذِّئابِ، فَعَلِمْنا أَنَّ مَآلَهُ[١١] الْمَوْتُ الْوَشِيكُ.



[٩] نحو أربعة من الكيلومترات.

[١٠] تحيط بنا.

[١١] مصيره.

وَما سِرْنا خُطُواتٍ قَلِيلةً، حتّى رَأَيْنا جُثَّةَ جَوادٍ آخَرَ قَطَّعَتْها الذِّئابُ إِرْبًا إِرْبًا،[١٢] وإِلى جانِبِها جُثَّتَيْ فارِسَيْنِ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُما الذِّئابُ إِلَّا الْعِظَامَ. فَعَلِمْنا أَنَّ أَحَدَهُما هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ الرَّصاصَةَ الَّتي سَمِعْنا دَوِيَّها مُنْذُ حِينٍ.

وإِنَّا لحَائِرُونَ مَذْعُورُونَ مِنْ هذا الْمَنْظَرِ الْمُفَزِّعِ الْهَائِلِ، إِذْ أَقْبَلَ علَيْنا — مِنْ أَسْرابِ الذئابِ — ما لا قِبَلَ لَنا بِمُقاوَمَتِه. فَقَد اكْتَنَفَنا نَحْوُ ثَلاثِمائَةِ ذِئْبٍ؛ فاعْتَصَمْنا[١٣] بِأَشْجارٍ قَرِيبَةٍ.

وبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنا، ظَلَلْنا نُطْلِقُ عليْها الرَّصاصَ فَتَرَاجَعتْ، ثُمَّ كَرَّتْ علَيْنا كَرَّةً أُخْرَى. وما زِلْنا نُحارِبُها مُسْتَبْسِلينَ، حتَّى قَتَلْنا مِنْها نَحْوَ سِتِّين ذِئْبًا، وكَسَبْنا الْمَعْرَكَةَ — بَعْدَ جِهادٍ عنيفٍ — وانْتَصَرْنا عَلَى الذِّئابِ، بِأُعْجُوبَةٍ لا مَثِيلَ لها في الْأَعاجيبِ.

(٥) خاتِمَةُ الرِّحْلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنا الْمَرْحَلَةَ الْباقِيَةَ مُسْرِعينَ، حتَّى وصَلْنا إِلى الْمَدِينَةِ، حَيْثُ أَتْمَمْنا رِحْلَتَنا — بعْدَ ذلكَ — آمِنينَ.

وما أَنْسَ لا أَنْسَ — ما حَيِيتُ — هذهِ الرِّحْلَةَ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ الَّتي أَنْسَتْنِي أَهْوالُها أَهْوالَ الْبَحْرِ.

وقَدْ آلَيْتُ[١٤] عَلَى نَفْسِي أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْباقِيَةَ منْ عُمْرِي في دَعَةٍ[١٥] واطْمِئْنانٍ، وأَمْنٍ وسَلامٍ.

[١٢] قطعة قطعة.

[١٣] لجأنا.

[١٤] حلفت.

[١٥] راحة.


هنداوي